

الاسكندرية

ليق تولىستوى
ترجمة
موسى وهبه مينا



ليق تولستوى

التاسك

ترجمت

موسى وهب مينا

الترجمة الكنسية

بكنيسة الشهيد العظيم مار جرجس

خماروية - شبرا - مصر

الغلاف واللوحات الداخلية
من تصميم
المهندس ماهر عزيز بدروس



في الأربعينات من القرن التاسع عشر جرت بعض الأحداث العجيبة في مدينة بترسبرج . كان هناك ضابط من سلاح الفرسان يتميز بمسحة من الجمال تنبأ له الجميع بالمستقبل الطيب وكانوا يتوقعون أن الامبراطور نقولا الأول لا بد وأن يضمه الى فرقة الحرس الامبراطوري . الا أن هذا الضابط ترك الخدمة ، وفسخ خطوبته الى احدى الفتيات الجميلات التي كانت تنتمي الى أسرة عريقة ، وكانت من أكثر النساء صداقة للامبراطورة . والأكثر من هذا أنه تنازل عن أملاكه لشقيقته ثم اعتزل في أحد الأديرة وصار راهبا .

بدأت هذه الحادثة في أعين الذين لا يعرفون الدوافع الباطنية لهذا التصرف أنها أمر غريب يصعب تفسيره أو قبوله ، ومع ذلك فقد بدأ هذا التصرف في عيني الأمير استيفان كازاتسكي طبيعيا تماما لا يملك أن يتصرف تصرفا آخر سواه .

كان أبوه كولونيلا متقاعدا من رجال الحرس ، وافته المنية عندما بلغ استيفان الثانية عشر . وكانت وفاته صدمة

بالغة لأنه التي لم تحتل بعد ذلك أن تفارق ابنها الا أنها اضطرت الى الحاقه بالكلية الحربية حسب رغبة أبيه .

أما الأرملة نفسها فقد انتقلت الى بترسبرج مع ابنتها بربارة لكي تكون على مقربة من ابنها حتى يتسنى له قضاء أجازاته معهما .

وقد حاز الصبي تقدير أساتذته لما تميز به من مقدرة وكفاءة عاليتين ، فضلا عما عرف عنه من تمسك بالكرامة والاعتزاز بشخصيته . لقد احتل المركز الأول بين رفاقه سواء في دراسته - خصوصا في الرياضيات التي كان مغرما بها - أو في تداريبه العسكرية وركوب الخيل . كان فارح الطول ، جميل الطلعة يفيض بالحيوية والنشاط ونولا حدة طباعه واندفاعه لصار طالبا مثاليا . كان صدقه والتزامه بكلمته من الصفات الملحوظة ، كما عرف عنه استقامته وسلوكه السنوي فلم ينحرف عن جادة الصواب في كل تصرفاته ، ولم تستهوه الخمر . كان العيب الوحيد الذي غطى كل حسناته هو نوبات الغضب التي كانت تنتابه ، فيفقد أثناءها كل سيطرة على عواطفه وتجعل منه وحشا قاسيا . لقد كاد في إحدى نوبات غضبه أن يلقي بأحد زملائه من النافذة لأنه أثاره أثناء مناقشة حول مجموعته من أنواع المعادن . وفي مرة أخرى تملكته ثورة عنيفة ، فطوح بطبق من شرائح اللحم في وجه أحد الضباط أثناء إشرافه على توزيع الطعام ، واندفع نحوه كالثور الهائج ويقال أنه اعتدى عليه فعلا . وكان السبب في ذلك أن هذا الضابط لم يف بوعده كإن قد قطعه على

نفسه ، ثم برر نفسه بأكذوبة فاضحة • لا شك أنه كان
سيعاقب بتنزيل رتبته لولا أن مدير الكلية تكتّم الموضوع
بكامله وعزل المشرف على توزيع الطعام •

عندما بلغ الثامنة عشر كان قد انتهى من دراسته في
الكلية الحربية ، وعين ضابطاً برتبة ملازم في إحدى فرق
الحرس التي تضم أبناء النبلاء •

لقد استرعى استيفان كازاتسكى أنظار الامبراطور نيقولا
بافلوفتش (نيقولا الأول) وهو مازال طالبا في الكلية ،
واستمر يجتذب انتباهه وهو في فرقته ولهذا السبب تنبأ له
الجميع بمنصب ياوران أو أركان حرب الامبراطور • وكان
كازاتسكى نفسه يتوق الى تولى هذا المنصب ليس عن طموح
فقط بل لأنه من أيام الدراسة كان شغوفا بخدمة مولاه ،
شديد الولاء له • وكثيرا ما كان الامبراطور يزور الكلية
الحربية ، وفي كل مرة كان كازاتسكى يتطلع باعجاب الى قامة
الامبراطور العالية المنتصبة ، وصدره المتعالى في بزته
العسكرية بينما يمشى في خطوته العسكرية المتسقة ، حليق
الوجه ، مقصوص الشارب ، أنفه محدب كمنقار النسر • كان
برهف سمعه لسماع صوت الامبراطور المدوي الرنان وهو
يتبادل التحية العسكرية مع الطلاب • كانت تتملكه نشوة
غامرة أحس بها فيما بعد عندما كن يلاقى المرأة التي أحبها •
في الواقع كان اعجابه القوي بالامبراطور أشد وأعنف ••
كان يتمنى أن يبذل شيئا من أجله - كل شيء حتى نفسه -
حتى يثبت للامبراطور ولاءه واخلاصه العميق • وقد أدرك

الامبراطور - بحسه المرهف وقوة ملاحظته - ما يثيره من حماس في نفس الشباب ، فكان يتعمد الهاب هذه المشاعر في نفوس الطلاب جميعا . كان الامبراطور يشاركهم ألعابهم ومزاحهم ، حريصا على التفاهم حوله ، يعاملهم في بعض الأحيان ببساطة كالأطفال ، وفي أحيان أخرى كصديق وبعد ذلك يرتد الى وقاره الملكي وسمته الرصين . ولكن بعد تلك المعركة التي شجرت بين كازاتسكى وضابط التعيين (الطعام) أمسك الامبراطور عن الحديث معه . وعندما كان كازاتسكى يقترب منه ، كان الامبراطور يزيحه بيده بعيدا عنه بطريقة لا تخلو من التصنع ، مشيحا عنه بوجه مقطب الجبين وهو يهز أصبعه في اتجاه كازاتسكى منذرا متوعدا . ولكنه قبل أن يغادر المكان كان يوجه حديثه الى كازاتسكى : تذكر . . أنا عارف كل شيء . هناك أشياء لم أكن أحب أن أعرفها ولكنها تظل عالقة هنا . . ثم يشير الى صدره .

وعندما حل موعد تخريج الطلاب ، استقبلهم الامبراطور في حفل رسمي ، ولم ترد أية إشارة - أثناء الحفل - الى غلطة كازاتسكى بل تحدث اليهم جميعا - كما جرت العادة - عن واجبهم المقدس في خدمة الامبراطور وأرض الوطن بتفان واخلاص ، وأنه سيظل أبدا صديقهم الوفي ، واذا دعت الضرورة فيمكنهم الاتصال به مباشرة . كان تكلمات الامبراطور صداها العميق في نفوس الضباط الشبان . واغرورقت عينا كازاتسكى بالدموع وهو يتذكر الماضي . وعندما حان دوره أقسم أن يخدم مليكه المحبوب ويفتديه بروحه .

وعندما تولى كازاتسكى منصبه ، انتقلت أمه مع شقيقته
أولا الى موسكو ثم الى ضيعتهم فى الريف . وقد تنازل
كازاتسكى عن نصف ثروته لشقيقته واحتفظ بما يكفيه لكي
يحافظ على مظهره ومكانته فى تلك الفرقة التى التحق بها .

كانت جميع المظاهر توحى بأن كازاتسكى ضابط شاب
لامع من ضباط الحرس يشق طريقه بنفسه نحو مستقبل أزهى
وأبهى ، إلا أن هناك فى أعماق نفسه كانت تجيش أشواق
وتطلعات عميقة وهبمة . منذ أيام الصبا كانت جهوده
ومحاولاته تبدو متباينة ومتغايرة ، إلا أن سمات معينة كانت
تسود كل هذه التصرفات مهما بدا فيها من تناقض . كان
يسعى جاهدا أن يؤدى كل شىء أو عمل يعهد اليه الى ذلك
الحد من النجاح والاتقان الذى يبهر الأنظار ويغتصب المديح
والإطراء ، سواء فى دراساته أو تداريبه العسكرية إذ كان
يشابر على ممارستها واثقانها حتى يعترف له بالتفوق والامتياز
ويصبح قدوة للآخرين . وكلما أتقن موضوعا وأجاده ، عكف
على آخر حتى حصل على المركز الأول فى دراسته . وعلى
سبيل المثال ، وهو مازال فى انكلية لاحظ على نفسه ضعفا
وتعثرا فى الحوار بالفرنسية فانكب على دراسة الفرنسية
وأثقتها حتى استطاع أن يتكلم بالفرنسية بنفس الطلاقة التى
يتكلم بها اللغة الروسية . وعندما بلغ هذا الحد اتجه الى
الشطرنج حتى صار لاعبا ممتازا .

وبالإضافة الى عمله الرئيسى ، خدمة الامبراطور والوطن ،
كان لا يبد له على الدوام أن يضع نصب عينيه هدفا ما . حتى

ولو كان هذا الهدف تاغها ، فإنه كان يكرس له نفسه تماما
ويخصص كل جهده للعمل من أجله حتى يتحقق هذا الهدف
وبمجرد أن يبلغ غايته ، يطفو على السطح هدف جديد يحل
محل سابقه . هذه الرغبة الجارفة في اثبات وجوده وشخصيته
وفي تحقيق هدف ما يتحقق من ورائه إبراز شخصيته ملأت
كل حياته وسيطرت عليها . وما أن تولى وظيفته حتى عمل
على الالمام الكامل بكل ما يتصل بهذه الخدمة وسرعان ما صار
مضرب الأمثال بين زملائه الضباط ، إلا أن عشرته القديمة
وسرعة هياجه وعجزه عن ضبط نفسه في سوررات الغضب
ظلت تلازمه . والآن وهو في السلك العسكري أدت به إلى
التردى في تصرفات تغلق دونه باب الترقى والنجاح . وأحس
في نطاق الوسط الاجتماعي الذي ينتمي إليه ، وفي الأحاديث
التي يتبادلها مع أهل هذه الطبقة أن هناك قصورا في ثقافته
العامية ، فأتجه إلى الكتب يقرأ ويستوعب ، وينهل المعرفة من
بطونها حتى تحقق له ما يريد . ولما كان تواقا إلى احتلال
مركز مرموق في المجتمع الراقى ، أخذ يتدرب على الرقص
حتى أتقنه وسرعان ما انفتحت أمامه أبواب الحفلات الراقصة
على أعلى المستويات ، كما دعى إلى اجتماعاتهم المسائية . . .
إلا أن كل هذا لم يشبع طموح الشاب الذي يريد أن يكون
الأول في كل شيء ، فقد أحس في وسط هذا المجتمع ، أنه
ما زال متخلفا عن الكثيرين ، وأنه لم يصل بعد إلى المركز
الأول .

والمجتمع الراقى يتكون من أربع جماعات ، الأولى من

الأغنياء المترددين على البلاط الامبراطورى ، والثانية وان كانت تقل فى الثروة الا أن أفرادها وتدوا ونشأوا فى دوائر البلاط ، والثالثة من الأغنياء الذين يتوددون لرجال البلاط والرابعة لا تتميز بالشراء ولا تنتمى الى البلاط ولكنها تتملق الطائفتين الأولى والثانية .

لم يكن كازاتسكى من الجماعة الأولى أو الثانية الا أنه كان يلقى ترحيبا من الطائفتين الأخيرتين . وعندما اندمج فى هذا المجتمع ، وضع فى نفسه أن يوطد علاقته باحدى سيدات المجتمع . وقد أخذته الدهشة عندما تحققت غايته بسرعة لم يكن يتوقعها . ومع ذلك فقد تكشف أمامه حقيقة دامية ، أن الدوائر التى ينصب فيها شرك الود والتعارف لم تكن هى الطبقة الراقية . كما تبين له أن أرقى الطبقات التى فتحت له أبوابها بالترحاب انما كانت غريبة عنه ، وهو لا ينتمى اليها . كانوا يعاملونه فى أدب بالغ ، ولكن سلوكهم العام كان ينم أن لهم جماعتهم الخاصة بهم ، وأنه ليس واحدا منها . وأراد كازاتسكى أن يصل الى العمق . وقد رأى - تحقيقا لرغبته - ضرورة الوصول الى رتبة أركان حرب الامبراطور وكان يتوقع الانعام عليه بهذه الترقية قريبا . ومن ناحية أخرى فقد رأى أن مما يحقق غايته أن يتزوج من احدى سيدات ذلك الوسط الخاص . وقد استقر رأيه بالفعل على ذلك . ووقع اختياره على احدى الفاتنات من نساء البلاط الامبراطورى لم تكن فقط من الطبقة التى يريد الانتماء اليها بل كان يطمع فى صداقتها أرقى الطبقات وأكثرهم عراقة

ونبلا . . كانت هذه هي الكونتيسة كورنكوفنا . . . بدأ
كازاتسكى يلاحقها بالملاطفة حتى يجتذب انتباهها ، ولم يكن
مسلكه هذا من أجل مطامعه في الترقى فقد كانت كورنكوفنا
على جانب كبير من السحر والجازبية وسرعان ما أخذت بمجامع
قلبه ، وتدلّه في هواها . في بداية الأمر كانت علاقاتها باردة
ازاءه بشكل ملحوظ ولكنها تغيرت فجأة وصارت تعامله برقة
بالغة وكانت والدتها تدعوه بخرارة لزيارتهم . وتقدم
كازاتسكى يطلب يدها ، فقبل طلبه بالارتياح والترحاب
حتى تعجب للسهولة التي استطاع بها أن يحقق سعادته .
ومع أنه لاحظ أن هناك أموراً غير عادية وغريبة في مسلك
الأم وابنتها ، إلا أن الحب العنيف الذي يجيش به قلبه أعماه
تماماً فلم يدرك ما كانت المدينة كلها تعرفه ، وبالتحديد أن
خطيبته كانت عشيقة الامبراطور نيقولا في السنة السابقة .
وقبل التاريخ المحدد للزواج بنحو أسبوعين ، كان
كازاتسكى في القصر الريفى الذي كانت تقطنه خطيبته .
كان يوماً قائظاً من أيام شهر مايو . وبعد أن قضى كازاتسكى
وقتها طيباً في صحبة خطيبته يتجولان في أنحاء المدينة ، جلسا
على أحد المقاعد في ظل خميلة وارفة الظلال . كان ثوبها
الأبيض من الحرير يتسق تماماً مع قوامها الجميل وكانت تبدو
أمام عينيه تجسيدا للبراءة والحب ، حينما تميل برأسها
قليلاً ، وأحياناً تتطلع الى الرجل الوسيم الذي ينتصب أمامها
في قامته الفارعة بينما يتحدث إليها في حنان بالغ في شيء
من التحفظ كأنه يخشى أن يخدش نقاوتها وجمالها الملائكى
سواء بالكلمة أو بالحركة .

كان كازاتسكى على شاكلة أولئك الرجال الذين تميزت
بهم أربعينات القرن التاسع عشر . . بينما كانوا يستبيحون
لأنفسهم ارتكاب القبائح والرذائل دون أن يخالجهم شك أو
يؤنبهم ضمير ، كانوا يشترطون الطهارة المثالية والنقاوة
الملائكية فى نسائهم . . يظنون كل العذارى فى طبقتهم من
أصحاب هذه العفة وانطهارة ، ويعاملونهن على هذا الأساس .
لا شك أن وجهة نظرهم لا تخلو من كثير من الزيف وكثير من
السوء خصوصا فيما يتصل بما سمحوا به لأنفسهم من ألوان
المتعة ، أما فيما يختص بالنساء فقد كان هذا الرأى التقليدى
العتيق ذا قيمة وشأن . واذ أدركت الفتيات هذه النظرة
المشعبة بالاعجاب والتقديس ، التمسن كل الوسائل وحاولن
أن يكون سلوكهن ملائكيا يرقى بهن الى مصاف الآلهة .

على أية حال ، كان هذا هو رأى كازاتسكى ، وبهذه
النظرة كان يحيط بخطيبته الحبيبة . وفى هذا اليوم بانذات
كان قلبه مشبوبا بمحبتها ، لا تخالطه نزوة أو رغبة من رغبات
الجسد . بل - على العكس من ذلك - كان يتطلع اليها بكل
ما فى قلبه من أحاسيس الحب والاعجاب والتقديس كأنها
أمل لا يمكن اتوصول اليه .

نهض كازاتسكى الى ملء قامته المشدودة ، وقصد وضع
يديه على سيفه ، ثم تراقصت ابتسامة رقيقة على شفثيه وهو
يقول : لقد عرفت الآن فقط ما هى السعادة التى يتمتع بها
الرجل . . أنت هى هذه السعادة وأنت التى وهبتها لى
يا عزيزتى .

مثل هذا الحديث العاطفي لم يكن مألوفاً بينهما . واذ كان يشعر في قرارة نفسه أنه أدنى منها بمراحل ، فقد اضطرب وهو يفصح عما تجيش به نفسه أمام مثل هذا الملاك .

– ينبغي أن أشكرك على هذه المعرفة ، لقد أدركت الآن أنني أفضل مما كنت أظن .

– أما أنا فقد عرفت ذلك منذ زمن طويل . ومن أجل هذا أحببتك .

وهبت نسمة رطبة من الهواء العليل ، تردد صداها بين أوراق الشجر الخضراء ، وقفزت العصافير ترشرف بأجنحتها عن قرب .

وأخذ يدها بين يديه فقبلها ، وجالت الدموع في مقلتيه ، وعرفت من ذلك تعبيراً عن شكره لأنها صرحت بحبها له . وفي صمت سار بضع خطوات ثم رجع إليها واقترب منها ثم جلس :

– أنت تعرفين . . . ينبغي أن أصارحك . . . عندما بدأت التقرب اليك ، لم يكن ذلك عفواً ، بل كنت أسعى إلى الدخول في الوسط الاجتماعي . . . ولكن بعد ذلك ، بدا لي هذا الهدف تافهاً عقيماً إذا ما قارنته بشخصك ، عندما عرفتك . . . أرجو ألا يغضبك هذا الاعتراف . . .

وأمسكت عن الجواب واكتفت بأن ربتت على يده برفق ، وكأنها تقصد :

- لا عليك .. لم أغضب .

- لقد قلت ... - ثم تردد ، ووقفت الكلمات فى حلقه ،
فقد بدا له أنها جرأة ما بعدها جرأة - لقد قلت أنك بدأت
تشعرين بالحب نحوى . اعتقد ذلك - ولكن يوجد هناك
ما يقلقك ويحد من احساسك . ما هذا ؟

وسرحت فى خواطرها : صحيح - الآن والا فلا يمكن
أبدا .. لا بد أن يعرف كل شىء بأية طريقة .. ولكن الآن
لا يمكن أن يفارقنى .. أما اذا فعل .. انه لأمر مرعب
وخطير . وحدجته بنظرة فاحصة ودودة طالعت بها قامته
المديدة بما فيها من قوة ونبل . انها تحبه ، تحبه الآن أكثر
مما كانت تحب القيصر . وبغض النظر عن بهاء الملك فهى
لن تتردد الآن لحظة فى تفضيل كازاتسكى على الامبراطور
نفسه .

- اسمع ! لا يمكنى أن أخدعك . لا بد أن أصارحك .
انك تسألنى عن سبب قلقي .. لقد كنت أحب انسانا آخر
من قبل .

ثم وضعت يدها على يده ، كأنها ترجوه ضارعة ، بينما
أخذ هو الى الصمت .

- أتريد أن تعرف من هو ؟ انه ... الامبراطور .

- كلنا نحبه .. يمكنى أن أتصورك كتلميذة فى المعهد .

- لا لا .. كان ذلك بعد أيام الدراسة . كنت مأخوذة

به . ولكن كل شىء قد انتهى .. يجب أن أقول لك ...

- حسنا • وماذا فى هذا ؟

- لا لم يكن مجرد ...

ثم غطت وجهها بيديها •

- ماذا ؟ هل استسلمت له ؟

ولم تنطق بكلمة ، وعاد هو يقول :

- عشيقته ؟

ولم تحر جوابا •

وقفز من مكانه واقفاً ، وتسمرت قدماه أمامها ، وارتعش فكاه ، واكتسى وجهه بمسحة من شعوب الموت • وقفزت الى ذهنه الخواطر ، كيف قابله الامبراطور وهنأه على خطوبته تهنئة رقيقة •

- يا الهى ... ما هذا الذى فعلت ؟

واستدار على عقبه ، واتجه فوراً الى البيت • وهناك تلاقى مع أمها التى بادرتة قائلة :

- ماذا حدث ؟ يا أمير ...

وتوقفت عن الكلام عندما ألقى نظرها على وجهه • لقد اندفعت الدماء فجأة الى رأسه :

- أنت تعرفين كل شىء ... وتستغليننى سياجا لهما!

لو لم تكونى امرأة ! ...

صائح غاضبا وهو يرفع قبضته في الهواء ، وأشاح عنها
بوجهه ، وخرج كالقذيفة لا يلوى على شيء .

لو كان هذا العشيق شخصا آخر لقضى عليه . . أما وهو
الامبراطور المحبوب ! . .

في اليوم التالي طلب أجازة كما طلب في نفس الوقت
اعفائه من وظيفته . ولكي لا يقابل أحدا ، أذاع أنه مريض ،
واعتزل في الريف .

قضى شهور الصيف في انقرية يرتب أموره ، وعندما
انتهى الصيف لم يرجع الى بترسبرج بل دخل الدير وانتظم
في سلك الرهبنة .

وقد كتبت اليه أمه تطلب اليه أن يثني عن هذا العزم ،
ولكنه أجابها بأنه شعر بدعوة الله التي تفوق جميع الاعتبارات .
ولكن أخته وحدها التي كانت تشابهه في الطموح والكبرياء
استطاعت أن تفهمه .

لقد أدركت أنه صار راهبا حتى يستطيع أن يسمو على
كل الذين كانوا يظنون أنهم أرفع منه مقاما . وكانت على
صواب فيما أدركت . واذ صار راهبا ، احتقر كل ما كان
يبدو هاما عند الآخرين كان يهتم بهذه الأمور عندما كان
ضابطا أما الآن فقد ارتفع فوق هذه الأمور وأصبح ينظر
باحترار الى أشواقه الأولى . . ولكن لم يكن هذا فقط - كما
كانت تعتقد أخته بربارة - هو المدة - الذي يسيطر على

حياته • لقد كان في أعماقه شيء آخر - احساس ديني صادق
لم تعرفه بربارة • كان هذا الاحساس يرتبط بأحاسيس
الكبرياء والرغبة في التفوق وصار حافزا موجهها لحياته •
كان اكتشافه لحقيقة خطيئته التي كان يرى فيها الطهر
الملائكي ، واحساسه بالاهانة التي لحقت به من القوة بحيث
أدت به الى اليأس • واليأس قاده الى - الى ماذا ؟ الى الله ،
الى ايمان الطفل الساذج ، الذي سكن في داخله ولم يتحطم
كما تحطمت آمانه ومطامعه في هذا العالم •





دخل كازاتسكى الدير فى عيد شفاعة العذراء المباركة
وكان رئيس الدير الذى استقبله من سلانة أسرة عريقة ،
كاتب واسع الثقافة من جماعة المتوحدين تنتمى الى سلسلة
من الآباء فى ولاشبا . وكان من عادة هذه الجماعة أن يختار
الراهب لنفسه مرشدا روحيا ومعلما من شيوخ الرهبان ،
يخضع له فى طاعة مطلقة . كان هذا الراهب تلميذا للأب
امبروسيوس المتوحد ، الذى كان بدوره تلميذا للأب
مكارىوس .

وقدم كازاتسكى نفسه لهذا الأب طالبا منه أن يكون له
معلما ومرشدا روحيا . وراقت له حياة الرهبنة بما أشاعته
فى نفسه من شعور بالتسامى ، الا أن نزعاته التى كان
يمارسها فى العالم لم تفارقه . كان يحس بالرضا العميق
عندما يؤدي واجباته الى أقصى درجات الاتقان والكمال سواء
فى صورتها الخارجية أم كمالها الداخلى . وكما كان دأبه فى
السلاح لا يكتفى أن يكون بلا لوم بل يتفوق فى أداء واجبه
الى أعلى درجات الكفاءة ، هكذا أيضا كان حريصا فى رهبنته
أن يكون كاملا فكان عمالا مجتهدا ، لا يفرط فى طعام أو

شراب بل لعله يميل الى الاقلال من الطعام والشراب ، لم يتخل عن خضوعه وطاعته فضلا عن وداعته وبشاشته كما كان نقياً في أفعاله ، طاهراً في أفكاره . وكانت الطاعة بصفة خاصة من العوامل التي جعلت حياته سهلة ميسورة . حتى حاجات الحياة في الدير ، الذي كان على مقربة من العاصمة ، اذا لم ترق له أو كانت ماثراً للتجارب ته ، كان يقضى على هذه المشاعر بالطاعة « تيس من حقى أن أناقش ، واجبى أن أؤدى ما يطلب منى من أعمال ، سواء كان ذلك في الوقوف بجوار عظام القديسين ، أو الاشتراك مع الشماسية في الألمان ، أو عمل حسابات دار الضيافة بالدير . . . » كل الشكوك التي قد تثور كان يكتمها بالطاعة للرئيس . ولولا ذلك ، لتبرم ضيقاً من طول الخدمات الكنسية وصلواتها الرتيبة ، ومن الضوضاء التي يثيرها الزوار ، ومن الصفات الرديئة التي لا تعجبه في بعض الرهبان الآخرين . وقد احتمل كل هذا بفرح وأكثر من ذلك فقد وجد فيها عزاء وتدعيماً لحياته الروحية « لست أدري لماذا يجب أن نستمع الى نفس الصلوات عدة مرات في اليوم الواحد ، ولكنى أعلم أيضاً أنه أمر ضرورى ، وهام ولهذا فأنا أجد لذة في ذلك . لقد علمه مرشده الروحي أنه كما أن الطعام المادى ضرورى للحياة بالجسد ، هكذا أيضاً لا بد من انطعام الروحي - صلوات الكنيسة - لنمو الحياة الروحية . صدق هذا وآمن به ، ومع أن صلوات الكنيسة كانت تستلزم منه اليقظة المبكرة ، كما كانت صعبة عليه ، إلا أنها كانت تملأ حياته بالهدوء والرضى . لقد كان ذلك ثمرة وعيه اليقظ

بضعفه ووضاعته ، وثقته بأن كل ما يفعله طاعة لمرشده لا بد
وان يكون عملا سليما .

لم يقتصر اهتمامه على اخضاع ارادته أكثر فأكثر ، بل
كان يتوق الى اقتناء جميع انفضائل المسيحية التي كان يظن
في بادئ الأمر أن الوصول اليها من السهولة بمكان . لقد
أعطى شقيقته كل ضيعته ونم يراوده الندم على ذلك ، فليس
له أى مطالب شخصية . والتواضع والخضوع حتى لمن هم
دونه لم يكن أمرا سهلا فقط بالنسبة له ، بل كان باعثا على
الاحساس بالسرور أيضا . حتى الغلبة على خطايا الجسد -
الطمع والشهوة - استطاع الوصول اليها بسهولة . لقد
حذره مرشده الروحي من الخطية الثانية تحذيرا خاصا .
ولكن كازاتسكي كان يحس بأنه ليس أسيرا لها ، بل تحرر
من قيودها ولاشك أن هذا كان باعثا لفرحه ورضاه .

ولكن شيئا واحدا كان يعذبه ويقض مضجعه كلما
طاف بذهنه شيء يذكره بخطيئته ، وليس فقط ذكراها بل
كذلك ما كان عساه يمكن أن يكون لو تم زواجه أمر
رهيب !! وبلا أرادة كان تداعى الخواطر يضع أمام ذهنه
احدى السيدات التي كان لها حظوة لدى الامبراطور ثم
تزوجت وصارت زوجة وأما جديرة بالاعجاب . كان زوجها
يحتل مركزا رفيعا ، يتمتع بنفوذ واسع وشرف عريض ،
وزوجة صالحة تقية .

كانت هذه الخواطر تترى عليه فى ساعات خلواته ،
ولكنه كان ينفذ عنه ثقل هذه الأفكار عندما يتذكر أن

التجربة قد عبرت وانتهت • ولكن كانت تمر به أحيانا
أوقات يرى فيها كل ما يحيط به وكل ما تقوم عليه حياته
يبدا ومظلمة كثيرا • • اللحظات التي تساوره فيها الشكوك
حول الهدف من حياته ، ويمعجز فيها عن تجديد الثقة فيه ،
ويخيم على نفسه شعور مقبض بالندم على هذا التغيير الذي
انتهجه في حياته •

وكان الشيء الوحيد الذي ينقذه من هذه الحالة العقلية
ومن هذا انضيق النفسى هو الطاعة والعمل ومداومة الصلاة
طوال اليوم • فكان يمارس طقوس الصلاة على اختلافها ،
كان يسجد وينحني ، بل كان يصلي أحيانا فيطيل أكثر من
المعتاد ، ولكنها للأسف كانت هذه الصلوات مجرد خدمة
شفاه أما روحه فلم يكن لها نصيب فيها • ربما استمرت
هذه الحالة يوما كاملا وقد تطول أحيانا الى يومين وتكثرت في
نهاية المطاف كانت تختفى من تلقاء ذاتها • • • ومع ذلك فقد
كانت هذه الأيام ثقيلة ومزعجة • كان كازاتسكى يشعر أنه
لم يعد ملكا لنفسه ، ولا بين يدي الله ، ولكنه كان يحس أن
هناك شيئا آخر يسيطر عليه • وكل ما كان يستطيع أن
يفعله هو طاعة مرشده مع ضبط النفس والكف عن العمل •
ثم الانتظار • وعلى وجه العموم كان طوال هذا الوقت لا يحيا
بمشيئته الخاصة ، بل بتدبير مرشده الروحى ، وفى هذه
الطاعة كان يجد راحة وهدوءا بصفة خاصة •

وهكذا أمضى كازاتسكى سبع سنين فى هذا الدير •
وفى نهاية السنة الثالثة تلقى نعمة الكهنوت وسيم قسسا

باسم الأب سرجيوس ، وقد كانت الخدمة حدثا هاما في حياته
الداخلية ، قبل ذلك كان يشعر بعزاء عظيم ورنجة روحية
عندما يتقدم للتناول من السر المقدس ، أما الآن وقد أخذ
السلطان فقد كان مجرد الاستعداد للقيام بالخدمة يملا نفسه
بنشوة عميقة . ولكن مع مرور الزمن خفت حدة هذا الانفعال
العاطفي تدريجيا حتى أنه في احدى المرات وهو يؤدي خدمة
انقداس الالهى ، وهو واقع تحت تأثير حالة نفسية سيئة ،
شعر أن ذلك الأثر الروحي انذى كان يحس به في صلوات
القداس لن يدوم وقد ضعف فعلا هذا الشعور الروحي العميق
ونم تبق فيه سوى عادة ممارسة هذه الصلوات الطقسية .

وهكذا عندما أقبلت السنة السابعة من حياته في الدير
كان الأب سرجيوس قد بلغ منه الاعياء درجة عظيمة .
لقد تعلم كل ما كان يمكنه أن يتعلمه ، ووصل الى كل ما كان
يمكنه أن يصل اليه . ثم يكن هناك ما يمكنه أن يعمله أكثر
مما فعل ، ولكن تراخيه وتناومه الروحي كان يتزايد يوما
بعد آخر . وفي هذه الأثناء سمع بوفاة أمه كما سمع بزواج
شقيقته بربارة ، وقد تقبل كلا الخبرين دون أن يعيرهما أى
اهتمام . كل اهتمامه وكل انتباهه كانا مركزين على حياته
الداخلية .

وفي السنة الرابعة من رسامته كاهنا ، أظهر الأسقف
اهتماما خاصا بأمره كما أبدى نحوه عظما خاصا . ونشئ هذه
الأثناء استدعاه المرشد الروحي وأوصاه ألا يرفض الخدمة
إذا دعى الى منصب أعلى . **وهكذا** أحس بذلك الظموح ، الذى

كان لا يرضيه في غيره من الرهبان وكان ينتقده . . ولكنه
جاش في صدره أحيانا . كان مرشحا لرياسة أحد الأديرة
القريبة من العاصمة . أراد أن يرفض ولكن مرشده أمره
أن يقبل فأطاع واستأذن من مرشده وانتقل الى ذلك الدير
الجديد .

وقد كان انتقال سرجيوس الى الدير الكبير حدثا له خطورته
في حياته ، فهناك واجه الكثير من التجارب والاعراض وقد
جمع أطراف شجاعته وارادته لكي يواجهها ويقاومها .

في الدير السابق لم تكن النساء مصدرا للتجارب ،
أما هنا فقد حاربتة التجربة بقوة وعنف ، واتضحت معالم
التجربة . فقد كانت هناك إحدى السيدات التي عرفت
بالتصرفات الطائشة الحمقاء - كانت تسعى ائيه وتخطب
وده . لقد تحدثت اليه ، وطلبت اليه أن يشرفها بزيارته ولكنه
اعتذر عن ذلك بحزم . ولكنه كان يضيق بنفسه وهو يشعر
بتلك الرغبة العنيفة التي تملأ قلبه . لقد اشتد به الضيق
حتى كتب عن مشكلته الى ابيه الروحي . وفضلا عن ذلك
فقد أراد أن يكبح جماح شهواته فتحدث في هذا الأمر الى
أحد المبتدئين ، واستطاع التغلب على احساسه بالخجل
واعترف له بضعفه وطلب اليه أن يراقبه بدقة وألا يسمح
له بالذهاب هنا أو هناك اذا كانت وجهته الى خدمة كنسية
أو لاتمام واجباته .

ولم يكن هذا هو كل ما يضايقه ، بل كان هناك فح عميق
يكن في مشاعره ازاء رئيس الدير الجديد ، لم يكن يحبه

بل كان هناك شعور عارم من النفور منه والتمرد عليه . . .
فقد عرف فيه رجلا ماديا يهتم بالمظاهر العالميه . يسعى
بكل ما عنده من حيلة ودهاء لكي يشق لنفسه طريقا في
المناصب الكنسية . لقد حاول سرجيوس أن يسيطر على
عواطفه العنيفة ، ولكنه لم يستطع أن يكبح نفسه . لا شك
أنه كان خاضعا مطيعا لأوامر الرئيس ولكنه في أعماق نفسه
لم يكف عن ادانته حتى أنه في السنة الثانية من اقامته بالدير
عيل صبره ازاء مشاعره العنيفة فانفجر بركان غضبه .

في عشية عيد شفاعة العذراء المباركة ، كان هناك عدد
كبير من الزوار يشترك في الصلوات الطقسية بالكنيسة
الضخمة في الدير ، وكان رئيس الدير يقود الصلوات بنفسه
كان الأب سرجيوس واقفا في مكانه المؤلف يصلي بحرارة ،
كان في ذلك الجهاد الروحي الذي يغمره أثناء الخدمة المقدسة
خصوصا اذا لم يكن هو الكاهن الخادم في الصلاة . كان هذا
الصراع يحتد ويشتد في أعماقه اذا كانت الكنيسة حافلة
بالناس ، خصوصا الطبقة الراقية ، وبالذات الجنس الناعم .
حاول ألا يراهم ، وحول نظره عنهم حتى لا يلاحظ شيئا مما
يجرى : ذلك الجندي انذى أخذ ينظم ويرتب ، ويدفع البسطاء
والفقراء جانبا ؛ تشير السيدات الواحدة للأخرى الى هذا
الراهب أو ذاك - كانت بعض هذه الأيدي الناعمة تشير اليه
كما كانت تشير الى راهب آخر يمتاز بلامحه الجميلة . حاول
أن يحفظ ذهنه من الشرود ، وأن يثبت بصره في ضوء الشموع
التي تحف بالمدبح المقدس ، أو في الأيقونات أو في الآباء

الكهنة والشمامسة وهم يؤدون الخدمة المقدسة • جاهد
فى أعماقه حتى لا يسمع أى شىء سوى اتصالات وألحانها
والقراءات ، وألا يشعر بشىء بل أراد أن يفنى ذاته فى
الإحساس بتحقيق الواجب - ذلك الإحساس الذى لم يفارقه
إطلاقاً وهو يسمع أو يتمتم مقدماً الصلوات التى درج على
سماعها دائماً •

هكذا وقف ، يرشم نفسه بعلامة الصليب أو يطأطئ
و ينطرح ساجداً كلما اقتضى الأمر ذلك •• وطوال الوقت
بصارع مع نفسه ، تارة يستسلم للادانة واحصاء الأخطاء ،
وتارة يتوه فى تداعى الحواطر وراء الآثار المتعمدة المقصودة ،
وهناك الأب نيقوديموس المسئول عن حفظ الكتب المقدسة •
وأدوات المذبح وملابس الخدمة •• لقد كان حجر عشرة
سرجيوس الذى كان لا يستطيع أن يكتب أدانته وتوبيخه له
لأن نيقوديموس **دأب** على تملق رئيس الدير ومداهنته •••
لقد اقترب الأب نيقوديموس نحو الأب سرجيوس وانحنى
أمامه سائلاً إياه أن يتقدم للوقوف خلف أبواب الهيكل ،
تأصلح الأب سرجيوس من هندامه ، ولبس قلنسوته ثم شق
طريقه فى وسط الجموع وحواسه مرهفة نكل ما يدور حوله •
وترامت إلى أذنيه كلمات إحدى السيدات وهى تقول
ببارتها : ليزا • انظرى إلى اليمين • انه هو •

- أين ؟ ليس على قدر كبير من الجمال •

لقد أدرك أن حديث المرأتين كان يدور حوله • لقد تبين

كلماتهما بوضوح ، ولكنه رد بسرعة : ولا تدخلنا في تجربة .
لقد اعتاد اللجوء الى هذه الكلمات كلما هاجمته التجارب ،
وأحسني رأسه وأغضى بصره ثم عبر بجوار المنجولية ثم دخل
الهيكل من الباب البحري فتفادى - بذلك - الكهنة في ملابسهم
السوداء وكانوا في تلك اللحظة يدخلون عبر حجاب الهيكل .
وما أن دخل سرجيوس الى الهيكل حتى سجد وهو يرشم
نفسه بعلامة انصليب كالمعتاد ، وأدى المطانيات أمام الأيقونات
ثم نهض قائما ورفع رأسه ، ودون أن يلتفت يمينا أو يسره ،
استطاع بنظرة جانبية أن يرى رئيس الدير واقفا بجوار
شخص آخر تبدو عليه علامات الرفعة . كان الرئيس واقفا
بجوار الجدار وقد ارتدى ملابس الخدمة وقد أخرج يديه
السمينتين من تحت البرنس ، وعقد ذراعيه على جسمه الضخم
وكرشه البارز ، ويعبث من حين الى الآخر بالمنطقة المشدودة
حول وسطه . وتراقص البسمات على شفتيه وهو يتحدث
الى هذا الرجل في سترته العسكرية التي تدل على أنه من
قادة الحرس الامبراطوري . ان عيني سرجيوس المدربة الخبيرة
استطاعت أن تلمح بسرعة ما ازدان به كتف الرجل من علامات
الرتب العسكرية . لقد كان هذا انضابط هو نفس القائد
الذي كان يعمل سرجيوس تحت لوائه ، ولا شك أنه الآن
يحتل مركزا رفيعا . ولم يفت الأب سرجيوس أن يلاحظ
ادراك رئيس الدير لهذه الحقيقة ولهذا فلا يمكن أن تفوته مثل
هذه الفرصة . كان وجهه الأحمر المكتنز ورأسه الأصمغ
يشرقان بالرضى والسرور . ولكن هذا آثار اشمئزاز الأب
سرجيوس ، والتهب غضبه بالأكثر عندما سمع أن رئيس الدير

لهم يرسل في طلبه الا لكي يشبع فضول الجنرال الذي أراد
أن يرى رجلا كان يخدم معه من قبل . . هكذا قال بنفسه .

ومد الجنرال يده ليصافح سرجيوس وهو يقول :
« انى فى غاية الغبطة أن أراك فى هذا الزى الملائكى . وأرجو
ألا تكون قد نسيت رفيقا قديما لك » . كان الموقف مشيرا
للغاية ؛ وجه رئيس الدير الباسم فى وسط هذه الهالة من
شعره الرمادى ، كلمات الجنرال ووجهه الحليق تشيع فيها
ابتسامة الرضى والاعتزاز ، ورائحة النبيذ تنطلق مع أنفاسه ،
ألفاظه تختلط برائحة التبغ . . كل هذا أثار كوامن الغضب
والسخط فى نفس الأب سرجيوس . ولكنه انحنى ثانية أمام
رئيس الدير ثم قال : « لقد تنازل قداستكم فأرسل فى
طلبى » .

ثم توقف وملامح وجهه وعيناه تدل على السؤال الذى
أراد . . . لماذا ؟

وأجاب الرئيس : نعم . . لكي تقابل الجنرال .

وعلت وجه الأب سرجيوس سسحابة من الشحوب ،
وارتعشت شفتاه وهو يجيب : قداستكم يعلم أنى قد تركت
العالم من أجل خلاص نفسى ، ولكى أنجو بنفسى من التجارب .
لماذا تعرضنى لها أثناء الصلاة وفى بيعة الله ؟

— يمكنك أن تذهب . . اذهب . قانها رئيس الدير ،
وقد لمعت عيناه بالغضب ، وتجهمت ملامحه .

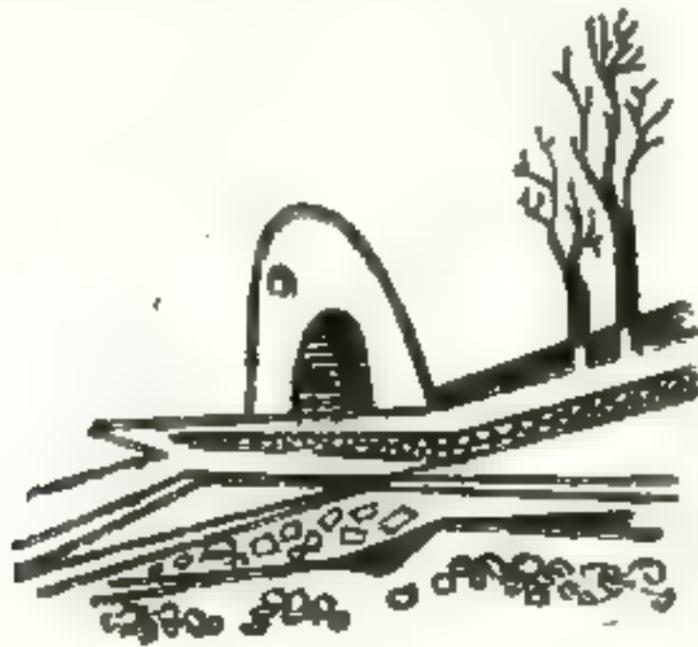


كانت كلماته تفصح عن التوبة والندم

- فى اليوم التالى تقدم الأب سرجيوس يطلب الصفح
 والمغفرة من رئيس الدير ومن الاخوة بسبب كبريائه . الا أنه
 فى نفس الوقت ، قضى ليلة فى الصلاة قرر بعدها أن يغادر
 الدير وكتب الى مرشده الروحى يطلب منه السماح له بالعودة
 اليه ثانية . لقد وصف له - فى رسالته - ضعفه وعجزه
 عن مقاومة التجارب بدون معونته وارشاده ، كما اعترف
 بخطية الكبرياء التى سقط فيها . كانت كلمته تفصح
 عن التوبة والندم . وسرعان ما ورد اليه خطاب من مرشده
 أعرب فيه لسرجيوس أن كبرياءه هى السبب فى كل
 ما حدث . . . لقد أكد له أن نوبات الغضب التى تنتابه ترجع
 الى رفضه كل الكرامات والرتب الكنوتية التى عرضت عليه ،
 وأن ما يمارسه من أساليب وضع الذات ورفض الكرامة
 لا يمارسه محبة فى الله بل استجابة لكبريائه « هوذا الآن ،
 ألم أنجح نجاحا رائعا لأنى لا أطلب شيئا لنفسى » . . . هذا
 هو السبب الذى جعله لا يحتمل تصرف رئيس الدير
 ولا يطيقه . « لقد جحدت كل شىء من أجل مجد الله وهما هم
 يستعرضوننى كأنى حيوان مفترس » لو كنت قد جحدت
 الغرور والاعتزاز بالذات من أجل الله لاستطعت أن تحتمل .
 أن روح الكبرياء العالمى لم يمت فيك حتى الآن . لقد فكرت
 كثيرا فى ظروفك - يا بنى سرجيوس - وصليت كذلك وهماك
 ما أعطانى الرب لكى أقوله لك . فى برية تامبوف ، كان يعيش
 القديس هيلارى المتوحد . . . وقد أنتهى من جهاده على الأرض
 وانتقل . . . لقد قضى ثمانية عشر عاما فى تلك البرية .
 ان رئيس تامبوف يبحث عن أحد الاخوة الذى يشغل مكان

ذلك الناسك . . وخطابك يصل في نفس الوقت . اذهب
الى الأب بيشوى في دير تامبوف ، وسأكتب كذلك اليه حتى
يسمح لك بالسكنى في قلالية الأب هيلارى . ليس معنى ذلك
انك ستحتل مكانة هذا القديس ، ولكنك في حاجة الى الوحدة
حتى تقمع كبرياءك . الرب يبارك حياتك . »

وهناك كان الأب بيشوى ، انذى كان قبل الرهبنة رجل
أعمال ناجح ، وقد استقبل الأب سرجيوس في بساطة وهدوء ،
وأعطاه قلالية الأب هيلارى للسكنى ، وفي البداية خصص
له أحد الأخوة العلمانيين لخدمته ولكنه فيما بعد تركه وحيدا
في وحدته استجابة لرغبة سرجيوس نفسه . كانت قلاليته
عبارة عن مغارة مزدوجة ، محفورة في جانب الجبل ، وفي هذه
المغارة تم دفن المتنيح الأب هيلارى في الجزء الخلفى منها حيث
كان قبره ، بينما خصص الجزء الأول منها للنوم ، فيه حشية
(مرتبة) من القش ، ومنضدة صغيرة ورف صفت عليه الكتب
والأيقونات . خارج الباب الذى يغلق بواسطة خطاف ، يوجد
رف آخر حيث يحضر أحد الرهبان مرة كل يوم ليضع عليه
الطعام . وهكذا صار سرجيوس ناسكا متوحدا .





فى السنة السادسة من حياة الوحدة التى أخذ اليها
سرجيوس ، وفى رفاع الصوم الكبير الذى اعتاد الناس أن
يحتفلوا به احتفالا صاخبا ، التأمت جماعة مرحة من الأغنياء ،
رجال ونساء من المدينة المجاورة واستمتعوا بأطيب الطعام
والنبيذ . كانت الجماعة تضم اثنين من المحامين ؛ وأحد أصحاب
الأملاك الأثرياء ، وضابطا ثم أربعة سيدات ؛ احدهن كانت
زوجة الضابط ، والثانية زوجة الثرى ، والثالثة هى شقيقته
وهى فتاة فى ريعان الشباب ، والرابعة سيدة مطلقة ، جميلة
وغنية ، ولكنها تتميز بالشمذوذ فى تصرفاتها ، وأهل المدينة
كثيرا ما أصابتهم الدهشة لمغامراتها وهربها من حين الى آخر ،
فصدمت مشاعرهم .

كان الجو رائعا ، والطريق تغطيه الثلوج الناعمة وكأنها
جزء سوى منه . وانطلقت عرباتهم خارج المدينة حتى قطعت
سبعة أميال ثم توقفوا . أخذوا يتشاورون فيما اذا كانوا
يعودون أدراجهم أو يواصلوا رحلتهم الى مسافة أخرى .

وسألت المطلقة الجميلة ما كوفكينا : ولكن .. الى أين
يؤدى هذا الطريق ؟

- وأجاب أحد المحامين ، الذى كان يخطب ودها ، بقوله :
- الى تامبوف . . على بعد ثمانية أميال من هذا المكان .
- وبعد ذلك . . الى أين ؟
- ثم الى لس . . بعد الدير ؟
- ألا يعيش هناك الأب سرجيوس ؟
- هو كذلك .
- كازاتسكى ، الناسك الجميل ؟
- نعم .
- سيداتى وساداتى . دعوتنا نواصل المسير ، ونرى كازاتسكى ! يمكننا أن نتوقف عند تامبوف للراحة ثم نصيب شيئاً من الطعام .
- ولكن معنى هذا ألا نعود الى بيوتنا الليلة .
- وماذا فى هذا . . يمكننا أن نبيت فى مغارة كازاتسكى حسناً . ولكن فى اندير توجد دار رائعة للضيافة ، لقد أفمت هناك عندما كنت أترافع فى قضية ماخين .
- لا . . سأقضى الليلة عند كازاتسكى .
- مستحيل . . لا يمكن مهما أوتيت من قدرة !
- مستحيل ؟ هل تراهن ؟
- لا مانع . لو نجحت فى قضاء الليل عنده ، فانى مستعد أن أراهن بما تريدون .
- حسب تقديرى ؟
- وكذلك يكون من جانبك أيضاً !
- طبعاً . . هيا بنا .

ودارت كؤوس النفودكا على السائقين ، وأخرجت الجماعة
صندوقا مليئا بالفطائر والحلوى والتهاموها . تدثرت النساء
بعراء الكلاب البيضاء . وتناقش السائقون فيمن يستطيع
ان يسبق الآخرين ، وكان أصغرهم جالسا على جانب مقعده
دتكئا الى جانبه ، واذا به يفرقع بسوطه ، ويطلق صوته يحث
الخيول ، ويدق أجراس العربية وينطلق في طريقه .

لم تتأرجح العربية اطلاقا ، وانطلق الحصان ينهب الطريق
الثلجي الناعم . وفوق مثل هذا الطريق تبدو العربات وكأنها
تمزلق الى الخلف بسرعة عجيبة ، ولكن السائق وقد اعتدل في
جلسته ، واتجه الى الامام أخذ يهز اللجام في يده ، ويحث
الخيول على المسير . كان الضابط يجلس في مقابل أحد
المحامين وقد اشتركا في حديث تافه مع جار ماكوفكيننا .
أما هي فقد جلست بلا حراك مستغرقة في التفكير ، وقد
جذبت أطراف الفراء حولها بشدة : « نفس الصورة تتكرر
على الدوام ، شيء سخيف دائما . نفس انوجوه اللامعة الحمراء
تفوح منها رائحة التبغ والنبيد . . نفس الكلام ونفس الأثكار
. . وعن نفس الاشياء دائما ! . . وهم دائما راضون عن
ذلك ، لا يخامرهم أدنى شك في أن الحياة يجب أن تجري على
هذا المنوال ، ولا بد لهم أن يواصلوا حياتهم على نفس النهج
حتى تنتهي حياتهم . . أما أنا فلا أطيق ذلك . . انها حياة
مملة وثقيلة . . أريد شيئا . . عملا يقلب كل شيء رأسا على
عقب . لماذا لا يحدث معنا ما حدث لأولئك الناس - في
ساراتوف على ما أظن - لقد استمروا في رحلتهم حتى وصلوا

الى منطقة جليدية قاحلة .. وهناك تجسدت أطرافهم ثم أجسادهم وماتوا بالفعل ! ماذا كان يفعل أصحابنا فى مثل هذا الموقف ؟ كيف يتصرفون ؟ .. تصرفات حقيرة ودنيئة بلا شك .. كل سوف يفكر فى نفسه فقط ، ولا يعمل ! الا من أجل نفسه فقط .. حتى أنا ستكون أعمالي مشينة !! ولكنى - على الأقل - أتميز بالجمال ، كلهم يعرفون هذه الحقيقة .. ولكن ماذا يكون الأمر بالنسبة للناسك ؟ من المستحيل أنه تجرد من الأحساس بالجمال فلا يبالي به ! لا ! انه الشيء الوحيد الذى يهتم به الجميع - مثل ذلك الضابط فى الخريف الماضى .. يا له من أحمق ! » .

ثم صاحت بصوت عال : ايفان نيكو لايفتش ..

- أوامرك ..

- كم يبلغ من العمر ؟

- من .. ؟

- كازاتسكى .

- أعتقد أنه فوق الأربعين .

- وهو يستقبل جميع الزائرين ؟

- نعم ، كل شخص .. وتكن ليس دائما .

- غط قدمى .. لا ، ليس كذلك .. يا نك من فظ !

لا .. مرة أخرى . هكذا ! لا داعى للضغط عليهم !

وهكذا وصلوا الى الغابة حيث كانت المغارة .

وقفزت ماكوفكيينا من العربة ، وطلبت اليهم أن يتركوها

حيث هى ، وأن يتابعوا هم رحلتهم . وعندما غابت العربة

عن أنظارها ، أخذت تصعد الممر الجبلى وقد تدهرت بمعطفها

من فراء الكلاب الأبيض .. ترجل المحامي وتوقف قليلا ،
وهو يتابعها بنظراته ويرقبها .

كانت هذه هي السنة السادسة من عزلة الأب سرجيوس
منذ أن انتهج أسلوب التوحد في نسكه ورهينته ، وقد بلغ
التاسعة والأربعين . كانت حياته في الوحدة شاقة وقاسية ،
ليس بسبب الأصوام والصلوات التي اعتادها ، بل بسبب
صراع داخلي لم يكن يتوقعه . كان هذا الصراع يدور حول
أمرين : الشكوك وشهوة الجسد ، ويبدو أن هذين الخصمين
كانا يتلازمان ويهاجمانه معا . كان يظن أنهما خصمان
ولكنهما في الحقيقة كانا خصما واحدا وشيئا واحدا . لا يكاد
الشك يفارق ، حتى تلتهب فيه الشهوة . ولما كان يعتقد
أنهما عدوان مستقلان ، فقد كان يجاهد ضد كل منهما على
حدة .

ورفع فكره ، وصرخ في أعماقه : يا الهى ، يا الهى ..
لماذا لا تنعم على بعطية الايمان ؟ .. هناك الشهوة ، بلا شك ،
حتى القديسين كان عليهم أن يجاهدوا ضدها - القديس
أنطونيوس وغيره من الآباء .. ولكنهم كان لهم ايمان ،
أما أنا فتجوز على لحظات .. ساعات .. وأيام أفترق فيها الى
الايمان . لماذا يوجد هذا العالم ويبقى بكل ما فيه من مباحج
ولذات ... لماذا يوجد ويبقى اذا كان خاطئا فاسدا يجب
أن ننكره ونجحده ، لماذا ؟ لماذا خلقت يا رب هذا الاغراء
وهذه التجارب ؟ التجارب ؟ لماذا لا تكون التجربة كامنة في
تلك الرغبة أن أهجر كل متع وأفراح العالم حتى يعد لي مكان

عنه . . . حيث . . . ربما لا يوجد شيء على الإطلاق .
وإذ يصل إلى هذا الحد من التفكير ينزعج ويضطرب ويشعر
باحتقار شديد لذاته . « مخلوق فاسد شرير ! أنت الذي
تريد أن تصبح قديسًا !! » ثم ينحى على نفسه باللوم
والتوبيخ ، ويهرع إلى الصلاة . وما يكاد يبدأ في الصلاة ،
حتى ترتسم أمام مخيلته أحداث حياته عندما كان في الدير ،
في مركز مرموق ، يزدان في قلنسوته وردائه ، ثم يهسر
رأسه : « لا . . . ليس هذا صحيح أنه خداع . قد أخدع
الآخرين ولكني لا أستطيع أن أغاظ نفسي أو الله . . . لست
على شيء من التقوى أو الجلال . . . بل شقي مسخيف مسكين
يستحق الرثاء ! » ثم يقلب ثنانياً رداءه الأسود ، ويبتسم
عندما تقع عيناه على ساقيه انهزيلتين تسبحان بين أطراف
سرواله الواسع .

وأسرع يغطي رجليه ، وبدأ في تلاوة صلواته فرشم
نفسه بعلامة الصليب وسجد إلى الأرض . « هل يمكن أن
يصبح فراشي هذا هو صندوق دفني ؟ » وكأنما الشيطان
يهمس في أذنيه : « الفراش الموحش هو نفسه القبر . . .
مجهود باطل . . . » ورأى بعيني خياله كتفي أرملة عاش معها
ردحا من الزمن . . . وهز رأسه ، وطرده الفكر الشرير سريعا
واستأنف القراءة . وبعد تلاوة قانون الإيمان ، أخذ الانجيل ،
وفتح الكتاب ووقعت عيناه على فقرة كان يرددها وقد حفظها
عن ظهر قلب : يا سيد ، أؤمن . أعن عدم إيماني - واستراحت
نفسه إذا وضع جانبا كل الشكوك التي ساورتها . وكما

يستبدل النار شيئاً بآخر لا يعادله أو يساويه ، هكذا أصل
إيمانه بعناية مكان الشكوك . . . ولو أن إيمانه هنا قام على
أسس مهزوزة . . . كل ما فعله أنه خطا خطوة إلى الخلف خطاها
في حرص حتى لا يهز هذا الإيمان أو يقلبه . . . لقد لجم ذهنه
المشتت المضطرب ، وأخذ يسترد هدوءه وسكونه النفسى
وهو يردد صلاته - التى كثيرا ما كان يقولها فى أيام صباه -
« يا رب اقبلنى اليك ، اقبلنى اليك » . لم يقتصر شعوره
على الهدوء فقط ، بل غمره شعور بالفرح والانشوة . رشم
نفسه بالصليب المقدس ثانية ، ثم رقد على فراشه الموضوع
على المقعد الضيق الطويل ، وأسند رأسه على عباة الصيفية .
واستسلم للنوم سريعا وفى نومه الخفيف ، خيل إليه أنه سمع
دقات أجراس إحدى العربات . واذ كان بين اليقظة والمنام
فقد ظن أن ذلك قد يكون حلما ، ولكنه سمع قرعا على الباب .
هب جالسا وأصاخ بسمعه ، فلعل ما سمعه كان من خداع
الحواس ، ولكنه سمع القرع ثانية . . . ان الذى يقرع قريب
من هنا . بل انه يقرع على بابه هو . . . ومع ذلك يوجد صوت
امرأة .

« يا الهى . . . هل يمكن أن يكون هذا صحيحا ، كما
قرأت فى حياة القديسين ، أن الشيطان قد يتخذ شكل
امرأة ؟ . . . نعم - انه صوت امرأة . . . صوت ناعم خفيض . . .
لطيف . . . تبالك » ثم بصق وهو يطرد الشيطان « لا . . . لقد
كان هذا مجرد تصورات وخيال » وبذلك طمأن نفسه وهدأ
من خواطره ، وهضى إلى ركن المغارة ، حيث منجليته الخاصة ،

ونسقط على ركبتيه وسجد بطريقته المألوفة التي تملأ نفسه
بالعزاء والسلام . وتهدل شعره على جبينه ووجهه ، وقد
ألصق رأسه ، التي تسلسل الصلح الى مقدمتها - بالأرض
الرطبة . وأخذ يردد المزمور الذي علمه اياه الأب بيمين
العجوز حتى يطرد التجارب . ثم انتصب بسهولة ، بقامته
النحيلة وجسده الهزيل على رجليه القويتين ، وحاول أن
يستمر في صلواته ولكن بدلا من ذلك أرهف أذنيه ، أراد
أن يسمع المزيد . كان الهدوء يخيم على المكان . ومن ركن
السقف أخذت قطرات الماء تسقط بانتظام في البرميل
الموضوع تحته . في الخارج كان الضباب ، والرطوبة تذيب
الثلوج التي تراكمت على الأرض . كان سكونا عميقا . ولكن
فجأة سمع شيئا يحتك بالنافذة . . . وصوتا يتكلم . . . نفس
الصوت اناعم . . . الرقيق . . . اللطيف الذي لا يمكن أن يكون
سوى صوت امرأة . . . جذابة . . . كانت تقول :

- اسمح لي بالداخل ، من أجل المسيح .

شعر أن دمه يتدفق بعنف الى قلبه ، حيث توقف وتجمد .
أخذ يلهث ويلتقط أنفاسه بصعوبة . . . « ليقم الله وليتبدد
جميع أعدائه ، وليهرب من قدام وجهه كل مبغض اسمه
القدوس . . . »

- « ونكني لست شيطانا » . . . كان من الواضح أن هناك
إبتسامة على الشفتين اللتين خرجت منهما هذه الكلمات . . .
« لست شيطانة ، بل مجرد امرأة خاطئة ضلت طريقها

بالفعل ، وليس تعبيراً مجازياً ، وضعت . . . « لقد جمعت
أطرافى من البرد ، والتمس المأوى والملجأ تحت سقفك » .
واقترب بالأكثر الى النافذة وألصق وجهه بزجاجها .
ولكن مصباح الأيقونة الصغير كان ينعكس على الزجاج ويلمع
كله بالضوء . ورفع راحتيه الى جانبي وجهه وحملق بينهما .
ضباب وندى . . شجرة ، وفى مقابل وجهه تماما . . كانت
هى بنفسها . فعلا . . على بعد بوصات قليلة كان وجهه حلو
يخالط ملامحه علامات من الخوف انرقيق .

على رأسها قلنسوة جميلة وينسدل على كتفيها معطف
طويل من الفراء الأبيض . ومالت المرأة تتطلع باهتمام نحوه .
وتقابلت أعينهما وللوقت عرف كل منهما الآخر ، ليس لأنهما
كانا يعرفان بعضهما من قبل ، فهما لم يتقابلا قط من قبل ،
ولكن النظرات التى تبادلها - خصوصاً هو - جعلتهما
يشعران أن كلا منهما يعرف الآخر تماما ويفهمه . وبعد هذه
النظرة الطويلة ، كان من المستحيل عليه أن يتصور أنها
شيطان وليست امرأة بسيطة رقيقة ، حلوة ووديدة .

ورفع صوته قائلاً : من أنت ؟ ولماذا أتيت ؟

وأجابت فى نبرات ماكرة ولكنها أمررة نافذة : افتح
الباب من فضلك . لقد تجمدت . لقد قلت لك انى قد ضللت
الطريق .

- ولكنى راهب - ناسك متوحد .

- أرجوك ، افتح الباب . . أم لعلك تريد منى أن أتجمد

تحت نافذتك بينما تردد أنت صلواتك •

- ولكنك •• كيف •••

- انى لن آكلك •• من أجل الله دعنى أدخل ! لقد تصلبت

عروقى من البرد •

لقد كان يغمرها احساس داهم بالخوف ، فقالت هذه

الكلمات المرتعشة بصوت يكاد يختلط بالدموع •

وتراجع عن النوافذة ، وتطلع الى أيقونة المخلص وعلى

رأسه اكليل انشوك ، وصرخ من قلبه : يا رب أعنى ••

يا رب أسرع وأعنى • ورشم نفسه بعلامة الصليب وهو يطامن

برأسه أمام الأيقونة • ومضى الى انبأب ، وفتح الممر المظلم الصغير

ومد يده وتحسس مكن الحطاف الذى يوصد البأب الخارجى ،

ورفع الحطاف • وسمع وقع أقدام فى الخارج ؛ لقد تركت

النافذة واتجهت صوب البأب • وصاحت فجأة آه ، وأدرك

فى الحال أنها تعثرت فى النقرة التى حفرتها مياه المطر عند

عتبة البأب • وارتعدت يدها ولم يستطع أن يرفع الحطاف

عن البأب المغلق بأحكام •

- أوه ••• ما هذا الذى تفعله ؟ دعنى أدخل ! لقد

ابتلت ملابسى تماما ، وأطرافى تصلبت وتجمدت !

أتفكر فى خلاص نفسك فقط ، وتتركنى هنا أموت

من البرد •••

وهز البأب نحوه فى عنف ، ورفع الحطاف • ودون أن

يفكر فيما يفعل ، فتح الباب الى أقصاه حتى أنه اصطدم بها .

- أوه ... آسف . قال هذا بنفس الطريقة التي كان

يتعامل بها مع السيدات فيما مضى .

وابتسمت هي عندما سمعت كلمات اعتذاره ، وتواردت

الخواطر سريعة تترى على ذهنها « انه ليس مخيفا كما كانوا

يتصورون .. كل شيء على ما يرام » ثم قالت بصوت خفيض

وهي تخطو الى الداخل وتتجاوز « أنا هي التي يجب أن

تعتذر ، وتلتمس غفرانك ... ما كان يجب أن أخاطر

بنفسي ، ولكن الظروف القاسية هي التي ... » .

- أو سمحت ... قال ذلك وهو ينتهي جانبا حتى

تستطيع أن تتجاوزته وتدخل . ودخلت الى خياشيمه رائحة

عطرها النفاذ ، التي نسيها منذ زمان طويل . وعبرت من

المدخل الضيق الى داخل القلاية التي يقيم فيها . وأغلق

الباب الخارجي دون أن يثبت الحطاف وتبعها الى الداخل .

- يا ربى يسوع المسيح ابن الله ارحمنى أنا الخاطيء !

يارب ارحمنى أنا الخاطيء ! كان يصلي بلا انقطاع ... ونم تكن

صلاته قلبية فقط ، بل كان يحرك شفتيه دون ارادة

أو شعور . وعاد يقول لها ثانية « لو سمحت » بينما وقفت

هي في وسط الحجرة تتساقط منها قطرات المطر على الأرض ،

وهي تحدجه بنظراتها الفاحصة من قمة الرأس الى أخمص

القدمين ... وعيناها صاحكتان .. وأجابت ..

- سامحني لأنني أقلقت وحدثك . . . ولكنك تستطيع أن
تتبين حرج الموقف الذي أعانيه الآن . لقد ركبنا من المدينة ،
ثم راهنت أصدقائي أنني أستطيع العودة بمفردي من بوروفكا
إلى المدينة . ثم ضللت الطريق . . . ولو لم يصادفني التوفيق
في العثور على مغارتك . . . » وبدأت تسرد سلسلة من
الأكاذيب ولكنها لم تستطع أن تقاوم وجهه الصارم فتعثرت
في حديثها ولم تستطع أن تواصل أكاذيبها فركنت إلى
الصمت . لم تكن تتوقع أن تراه أو تجده على هذه الصورة
المهيبة . لم يكن على درجة كبيرة من الجمال كما كانت تتخيله ،
ومع ذلك فقد كان جميلا بما فيه الكفاية في نظرها ؛ لقد خط
المشيب شعر رأسه ولحيته ، تتخلله تجاعيد خفيفة ، أنفه
منتظم رقيق ، عيناه عندما تنظران إليها كأنهما قطعتا فحم
متوهجتان . . . كان له انطباع عميق في قلبها .

لقد رأى أنها تكذب .

- نعم . . . والآن . . . ، نظر إليها ثم غض من بصره وهو
يكمل حديثه ، سأدخل أنا هناك ، أما هذا المكان فهو تحت
أمرك .

وأنزل المصباح ، وأوقد منه قنديلا صغيرا ، حياها بانحناءة
خفيفة ثم دخل مغارته الداخلية الصغيرة وراء الحاجز الفاصل ،
واستطاعت أن تدرك أنه ينقل بعض الأشياء من مكان إلى
آخر : « لعله يحصن نفسه خوفا مني » وايتسمت عندما
ومضت هذه الفكرة في ذهنها وخلعت فراءها الأبيض وألقته

بهيدا عنها ، ثم حاولت أن تخلع قلنسوتها التي اشتيكت مع
شعرها (والمشبك) الذي ترتديه تحتها . لم يصبها البذل
عندما كانت واقفة عند النافذة ، ولكنها قالت ذلك حتى ترغمه
على ادخالها . ولكنها تعثرت حقا في الحفرة عند الباب وابتلت
قدمها اليسرى حتى المفصل كما امتلأ حذاءها بالماء . واستوت
جالسة على فراشه الذي لم يكن سوى مقعد مستطيل غطاه
بقطعتين من السجاد ، ثم أخذت تخلع الحذاء . وجاست
ببصرها في أنحاء القلاية ، وبدأت ترى عينيها رائحة ساحرة .
القلاية الصغيرة حوالى سبعة أقدام عرضا وتسعة طولا كانت
نظيفة جدا كالزجاج النقي . لم يكن فيها من الأثاث سوى
هذا المقعد الذي جلست عليه ، فوقه رف الكتب ، ومنجلية
القراءة في الزاوية . وبالقرب من الباب كانت الفراجيه
(الملابس السوداء للكاهن) ومعطف من جلد الغنم معلقان
في مسامير . فوق المنجلية كان المصباح الصغير أمام صورة
السيد المسيح وعلى رأسه اكليل الشوك . كان جو الغرفة
مشبع برائحة غريبة هي مزيج من رائحة العرق ورائحة التراب .
لقد استهواها كل شيء . . . حتى هذه الرائحة . أحست
بالألم في قدميها المبللين ، خصوصا احدهما ، وبدأت تخلع
حذاءها وجوربها بسرعة دون أن تكف عن الابتسام . لم يكن
شعورها بالسرور لأنها حققت هدفها قدر شعورها الغامر
بالسرور لأنها أشاعت القلق والاضطراب في نفس ذلك الرجل
الرائع الغريب ، بشخصيته القوية وجاذبيته الساحرة ،
ثم قالت بينها وبين نفسها : انه لم يتجاوب معي ، ولكن . .
ليس هذا مهما .

- أبونا سرجيوس .. أبونا سرجيوس ! • أو كيف
أدعوك ؟

وأجابه صوت هادى : ماذا تريدان ؟

- أرجو أن تسامحنى حقا ، لأنى أفسدت وحدتك ،
ولكنى بالحقيقة لم يكن فى مقدورى أن أفعل غير
ذلك ... لو لم أفعل ... لكان من الضرورى أن
أصاب بمرض خطير .. ولا أعرف ان كنت الآن فعلا
قد أصبت ... لقد تبللت تماما ، وقدمى كأنهما
قطعتان من الثلج •

وعاد الصوت الهادى يجيبها من الداخل : أسف
جدا .. لا يمكن أن أقدم أية معونة لك •

- لو كان شى استطاعتى ، لما أزعجتك يا أبى • سأظل
هنا حتى مطلع النهار فقط •

ولم يحر جوابا ، الا أنها سمعته يتمم شيئا ما ، لعلها
صلواته •

«حقا .. هذا رجل» وعادت الى خواطرها وهى تخلع حذاءها
المبتل بصعوبة • لقد شدت حذاءها بقوة ولكنه لم ينخلع ..
شىء سخييف ولكنه مضحك .. وبدأت تضحك من نفسها
بصوت غير مسموع • ولكنه اذا سمع نغمات صوتها الضاحك
فلا بد أن يتأثر وينفعل ، كما تريده هى • وضحكت بصوت
مرتفع .. ضحكتها المرححة الطبيعية الرقيقة ... ولم يكن
هنالك من شك أنه سمع وأنه انفعل •

« حقا يمكن أن أحب رجلا كهذا - هذه العيون وهذا الوجه
النبيل البسيط ، وفي نفس الوقت رجل عاطفي حساس رغم
كل الصلوات التي يلهج بها . . . » وتدافعت الخواطر ،
« لا يمكنك أن تخدع امرأة في هذه الأمور . . . لم يكذب
من النافذة ويرانى حتى عرفنى وأدرك ما فى نفسى . . . كان
هناك بريق فى عينيه لم ينطفىء . . . لا يزال فيهما . لقد بدأ
يحنو على وتتحرك فيه عاطفة الحب . . . انه يريدنى . . . نعم . . .
يريدنى » .

وكانت قد نجحت فى خلع غطاء حذائها ثم الحذاء نفسه
وأخيرا خلعت جوربها . ولكنى تخلع هذا الجورب الطويل
المثبت بحزام من المطاط (الأستك) كان من الضرورى أن
ترفع ذيل ردائها . وداهما شعور بالحيرة ، ونظرت فى كل
اتجاه ثم قالت :

— لا تدخل !

وعاد الصمت يخيم على المكان لأن الجانب الآخر من الجدار
لم ينبس ببنت شفة .

واستمر صوت التمتمة والحركة .

« لا شك أنه ساجد على الأرض ، ولكنه لا يريد أن تنحنى
نفسه وذاته الباطنية . . . لعله يفكر فى كما يشمغل هو
أفكارى . . . لعله يتأمل فى قدمى بنفس الشعور الذى يملأ
نفسى » وخلعت جوربها المبلل ، ورفعت قدميها تحتها على
المقعد ، وضغطت عليهما حتى ينالا شيئا من الدفء وانقضت .

فترة وهي جالسة على هذه الصورة ، وقد لغت ركبتيها
بذراعيها ، وسرحت ببصرها في تفكير عميق : ولكن هذه
صحراء مقفرة ، برية قاحلة يسودها الصمت والسكون .

••• لن يعرف أحد •••••

ونفضت من مكانها ، وأخذت جوربها الى الموقد وعلقته
فوق بلاط التحميم . كانت البلاطة غريبة ، وأخذت تقلبها
في يديها •• ثم خطت بقدميها العاريتين في رفق وعادت الى
مقعدتها واستردت مجلسها كما كانت بعد أن وضعت قدميها
على المقعد .

كان الصمت يخيم على الجانب الآخر تماما . ونظرت الى
ساعتها الصغيرة المعلقة في رقبتها ووجدت أن الساعة قد
بلغت الثانية صباحا « جماعتنا سوف تعود حوالى الثالثة ! »
إذا فلم يبق أمامها سوى ساعة واحدة « حسنا ، هل يجب
على أن أظل جالسة على هذه الصورة وحيدة تماما ؟ ••
كلام فارغ •• لا أحب أن أجلس هكذا ••• لا بد أن أناديه
حالا » .

- أبونا سرجيوس •• أبونا سرجيوس •• سيرجي

ديمتريش ! أيها الأمير كازاتسكى !

ولم يصل الى أذنيها أى صوت عبر الحاجز .

- اسمع ! •• انها قسوة •• ما كان يمكن أن أدعوك

لو لم تكن هناك حاجة ماسة الى ذلك • انى مريضة ••

لا أعرف ماذا أصابنى ••• ثم صاحت في صوت

يمزق الألسن نبراته .. آه .. آه .. وأخذت تنن
وتتوجع ، وترتمى على المقعد .

والشيء الغريب حقا انها أحست بالفعل أن قواها تنهار
حتى كادت تروح في غيبوبة ، كل أطرافها أخذت تصطك
بفعل دبيب الرطوبة والبرودة التي سرت في أوصالها .
وأخذ جسدها كله يرتعش بالحمى .

— اسمع .. الحقنى واعنى ! لا أعرف ماذا أصابنى ..
آه .. آه . وفكت أزرار فسستانها ، وكشفت عن
صدرها ، ورفعت ذراعيها عاريتين حتى المفصل ..
وهي تصيح وتئن .. أوه .. آه ..

وطوال هذا الوقت ، كان سرجيوس في مكانه في الجانب
الآخر من الحاجز يصلى . وبعد أن انتهى من صلواته الليلية ،
وقف مكانه بلا حراك ، وعيناه لا تنظران الا الى أرنية أنفه ،
وكان يردد عقليا بكل روحه ووجدانه : يا ربى يسوع
المسيح ، ابن الله ارحمنى !

ولكنه سسمع كل شيء .. سسمع حنيف ثوبها الحريرى
عندما خلعتة ، سسمع وقع قدميها العاريتين على الأرض ..
وسمع يديها وهي تدلك بهما قدميها .. لقد أحس احساسا
عميقا بضعفه البشرى .. وخاف لئلا ينهار ويسقط في أى
لحظة . ولهذا لم يتوقف عن الصلاة .. اختبر ذلك الشعور
الذى تتحدث عنه الأساطير عن ذلك البطل الذى كان عليه
أن يمضى قدما .. لا يتوقف .. ولا يلتفت الى الوراء ..

هكذا سمع سرجيوس ، وشعر بالخطر والهلاك اللذين يعاقدان فوقه ، ويحدقان به . . . وانه لا يمكن أن ينجسوا منهما إلا بالاحتراس والحذر حتى لا تتجه عيناه اليها لحظة . ولكنه بوغت بتلك الرغبة في النظر ، تأخذ عليه مجامع قلبه . . . وفي هذه اللحظة سمعها تقول . . .

– ألا يوجد عندك انسانية؟! . . . ربما أموت . . .

صحيح . . . سأذهب اليها . ولكني سأذهب اليها كالقديس الذي وضع إحدى يديه على الزانية ووضع الأخرى في موقد الفحم وسط الجمر الملتهب . . . ولكن هنا لا يوجد موقد للفحم ، وجمال ببصره في أنحاء مغارته الضيقة . . . المصباح أو القنديل ! ووضع أصبعه فوق لهب القنديل ، وزوى ما بين حاجبيه استعدادا للشعور بالألم . وبدأ ته أن الوقت يمضي طويلا دون أن يشعر بأى ألم ، ولكنه على حين غرة – ولم يكن قد شعر بالألم قد بلغ غايته – انكمش كل كيانه ، وجذب يده بعيدا ولوح في الهواء . . . « لا . . . لا يمكن أن أحتمل ذلك » .

– لأجل خاطر ربنا ، اسرع الى وأعنى ! اننى أموت . . .
آه .

– وماذا بعد؟ – هل أهلك؟ لا . . . لن يكون .

وأجابها : سأتى اليك حالا ، وفتح الباب . ودون أن يتجه اليها بعينيه ، اجتاز القلاية الى الممر الضيق المظلم حيث

اعتاد أن يقطع الخشب . . . وهناك تحسس مكان الكتلة التي
يستخدمها لهذا الغرض ، والفأس اندي كان مسندا الى
الجدار .

وعاد يقول : حالا . . . ثم أخذ الفأس الصغير بيده اليمنى ،
ووضع سبابة يده اليسرى على انكتلة ، ورفع الفأس وضرب
به المفصل الثانى من أصبعه . وانفصل الأصبع بسهولة
أكثر من عصا فى مثل سمكه ، وتطاير على الكتله وارتطم
بحافتها ثم سقط على الأرض .

لقد سمع صوت سقوطه على الأرض ، قبل أن يشعر بالألم
الحاد ، وقبل أن يوجد أى وقت للدهشة أو العجب ، أحس
بذلك الألم الملتهب ، ودمه الدافىء ينساب من أصبعه .
وأسرع يلف المفصل الباقي من أصبعه فى طرف ثوبه ضاغطا
اياه فى جنبه ثم عاد الى الحجرة ووقف فى مواجهة المرأة ،
وخفض عينيه وسألها فى صوت خافت : ماذا تريدين ؟

ورفعت عينيهما الى وجهه الشاحب ، ولاحظت خده الأيسر
يرتعش ، وغمرها شعور بالخزى والتجمل . وقفزت على قدميهما
واقفة ، وأمسكت فراءها وأحاطت به كتفيتها وغطت نفسها
به .

— كنت أحس آلاما شديدة . . . أصابنى برد شديد . . .
أنا . . . أيها الأب سرجيوس . . . انى . . .

ولمعت عيناه بوميض هادىء من الفرح . وسمح لهما
أن يستقرا عليها ثم قال لها :

— يا أختى العزيزة . . . لماذا تعملين على هلاك ووحك

الخالدة ؟ العشرات لا بد أن تأتي في العالم ، ولكن ويل
لمن تأتي بسببه العثرة ... اطلبى الى الله عسى أن
يعفر لكلينا ..

أرهفت السمع لكلماته ، ونظرت في وجهه .. ولكنها
سمعت صوت قطرات تتساقط واتجهت ببصرها صوب هذا
الصوت ورأت الدم يتساقط من يده ويجرى على ردائه
الأسود .

— ماذا فعلت بيدك ؟

وتذكرت ذلك الصوت الذي سمعته منذ قليل ، وأمسكت
بالمصباح وهروئت نحو الممر الضيق ووجدت على الأرض
أصبعه المقطوع ملطخا بالدم . عادت وقد ازداد وجهها شحوبا
عما كان عليه وجهه هو ، وأرادت أن تفتح فمها وتتكلم .
ولكنه مضى في صمت الى حجرتة الداخلية وأغلق الباب .
— سامحنى .. ماذا أفعل نكى أكفر عن خطيئتي .

— امض الى حال سبيلك .

— اسمح لى أن أضمد يدك .

— دعيني وشأني .. أخرجى من هنا ..

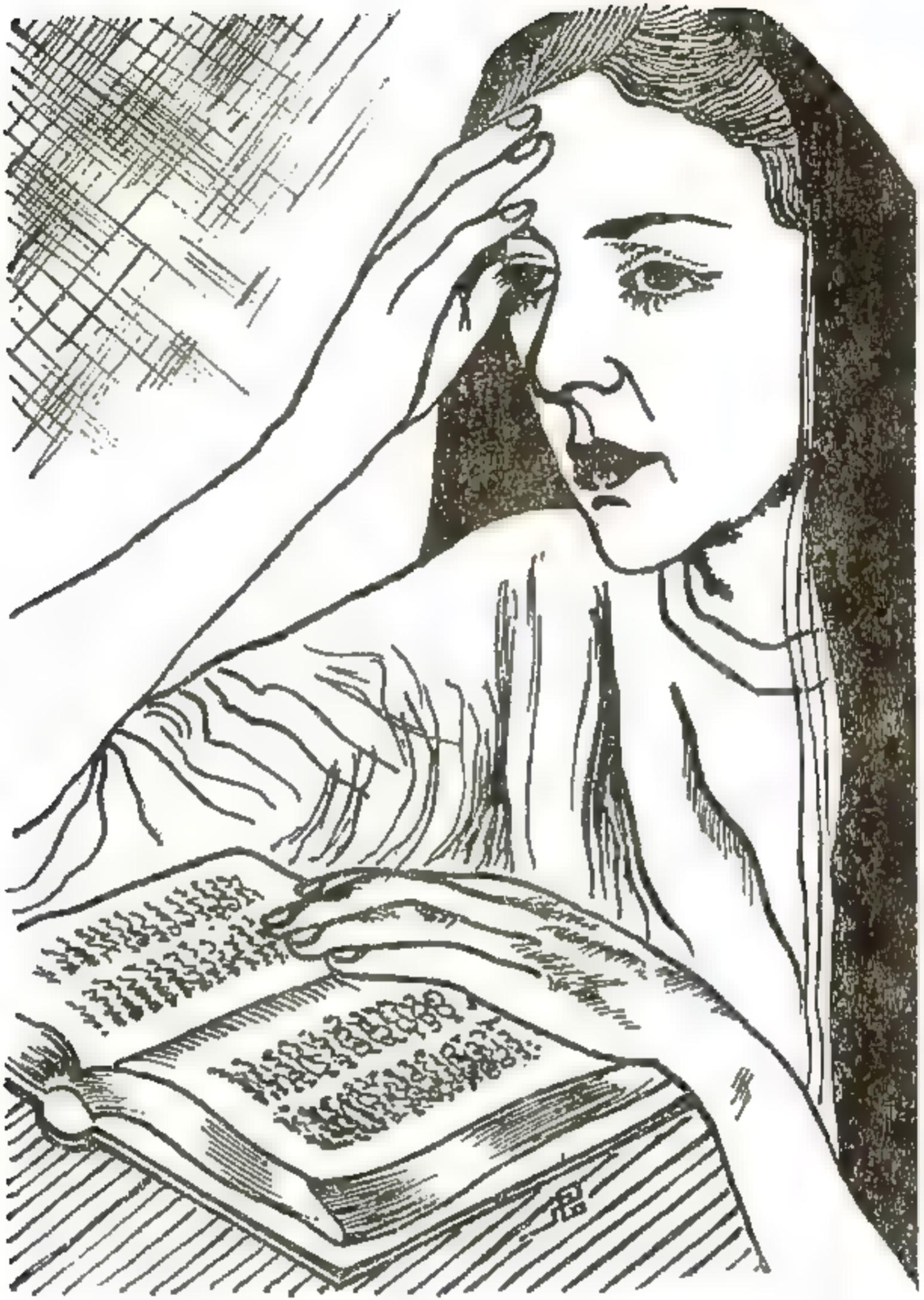
وارتدت ملابسها على عجل فتي صمت ، وجلست في كامل
ملابسها تنتظر .. وسمعت أجراس العربة تدق في الخارج ..

— يا أبى سرجيوس .. أغفر لى وسامحنى ...

— اذهبى ... الله يسامحك .

— يا أبى سرجيوس .. سأغير حياتى .. لا تتركنى ..

— مع السلامة !



... دخلت أحد أديرة النساء كمبتدئة تحت التدريب

- ساءحني يا أبى - وباركنى .. !
- باسم الآب والابن والروح القدس ... وسمعت
صوته من وراء الباب يقول : اذهبى .. امض الى
حال سبيلك !

وانفجرت باكية وهى تغادر القلاية ، وأقبل نحوها المحامى
ويقول : أرى أنى قد خسرت الرهان .. ثم يكن لى حظ
فى ذلك ... تفضلى أين تجلسين ؟

- فى أى مكان .. ثم اتخذت مكانها فى العربة ،
ولم تنطق كلمة واحدة طوال الطريق فى عودتهم .
وبعد سنة من هذا الحادث ، دخلت أحد أديرة النساء
كمبتدئة تحت التدريب ، وعاشت حياة صارمة تحت ارشاد
الناسك الأب أرسانيوس ، الذى كان يواظب على الكتابة
اليها من حين الى آخر .





وعاش الأب سرجيوس متوحدا سبع سنين أخرى . فى
بداية الأمر كان يقبل الكثير مما يجود به الناس عليه :
شاي ، سكر ، خبز أبيض ، لبن ، قماش وخشب الحريق ،
ولكنه مع مرور الزمن أخذ يلتزم بأسلوب أكثر زهدا وتقشفا .
كان يرفض ما يزيد على حاجته ، وفى النهاية كان لا يقبل
سوى الخبز المخلوط مرة كل أسبوع ، وكل ما عدا ذلك كان
يوزعه على الفقراء الذين يطرقون بابه . كان يقضى كل وقته
فى قلايته اما فى الصلاة أو فى الحديث مع زائريه الذين أخذ
عددهم يتزايد مع مرور الوقت . كان لا يبارح قلايته الا ثلاث
مرات فى السنة لحضور القداس فى الكنيسة ، أو اذا دعت
الضرورة لاحتضار الماء أو الخشب .

كان لقاءه مع داكوفينا بعد السنة الخامسة من حياته
فى الوحدة . . وسرعان ما انتشرت أخبار هذه الحادثة سواء
زيارتها الليلية أو التغير الذى طرأ على حياتها أو دخولها
فى سلك الرهبنة . ومن ذلك الوقت ذاعت شهرة الأب
سرجيوس ، وبالتالى تزايد عدد الزائرين . . وبدأت البرية
تمتلئ بالرهبان الذين حطوا رحالهم وأقاموا على مقربة من
مغارته ، ثم أقيمت كنيسة ودار للضيافة . ومع ذيوع صيته
وشهرته ، كانت فضائله وصفاته تمتدح وكالمعتاد كان لا بد

من المبالغة في مواهبه . وبدأ الناس يتقاطرون عليه من كل
حذب و صوب ، من مسافات بعيدة ، وبدأوا يحضرون معهم
المرضى لأنه كان يشفيهم .

وقد حدثت أول معجزة للشفاء في السنة الثامنة من حياته
كمترحد . شفى صبيا في الرابعة عشر من عمره أحضرته
أمه الى الأب سرجيوس وطلبت اليه بالحاح واصرار أن يضع
يده على رأس الصبي . لم يدر بخلد الأب سرجيوس أنه
يستطيع أن يشفى المرضى ، وكان يعتقد أن مجرد ورود هذه
الفكرة على ذهنه انما خطية عظيمة . . غرور وكبرياء ولكن
أم الصبي توسلت اليه بالحاح ، ووقعت عند قدميه صارخة :
أنت الذي تشفى كثيرين ، لماذا ترفض أن ترحم ابني ؟
وتوسلت اليه باسم المسيح . وأكد لها الأب سرجيوس
أن الله وحده هو القادر أن يشفى المرضى فأجابته أن كل
ما تطلبه أن يضع يديه على رأس الصبي ويصلي لأجله .
ورفض الأب سرجيوس وعاد الى قلايته . ولكنه في اليوم
التالي ، وكان ذلك في فصل الخريف الذي تشتد فيه برودة
الليل ، عندما خرج لاحضار الماء ، وجد نفس الأم مع ابنها . .
صبيا شاحبا في الرابعة عشر . . . وطلبت منه مرة أخرى
بلجاجة . .

وتذكر مثل قاضي الظلم ، ومع أنه كان واثقا من أنه على
حق في الرفض ، الا أنه بدأ الآن يتردد . وبعد التردد بدأ
يصلي . . وظل يصلي حتى استقرت نفسه على قرار . وكان
قراره أن لا بد من الاستجابة لتوسلات المرأة ، وليكن لها

حسب ايمانها • فقد ينجو ابنها بفضل هذا الايمان • أما فيما يختص به ، فلا يعدو أن يكون أداة بسيطة في يدي الله •

وعندما خرج الى المرأة ، فعل كما طلبت ووضع يده على رأس الصبي وصلى • ومضت المرأة مع ابنها • وبعد مضي شهر شفى الصبي وطارت شهرة الأب سرجيوس في كل مكان وعرف عنه أنه وهب قوة الشفاء • وبعد ذلك تم يكن يمضي أسبوع دون أن يأتي اليه المرضى ، راكبين أو على الأقدام • وما دام قد قبل طلبه انسان فلا بد أن يستجيب لتوسلات الجميع فيضع يديه على الكثيرين ويصلي • وكثيرون ناتوا البرء من أسقامهم ، ومع كل معجزة كانت شهرة الأب سرجيوس تنمو وتزداد •

والى هنا يكون الأب سرجيوس قد أمضى سبع سنوات في الدير ، وثلاث عشرة سنة في حياة التوحد في مغارته • وقد بدت عليه مظاهر الكبر ، لحيته مسترسلة وخطها المشيب ولكن شعره رغم أنه نحيل الا أنه كان يحتفظ بلونه الأسود وتجاعيده •





مضت عدة أسابيع على الأب سرجيوس ، تراوده فكرة معينة ملحة ، يقلبها على كل وجه «هل كان جديرا به أن يقبل المركز الذى أتيح له بواسطة الارشمندريت أو رئيس الدير . هذه المكانة بدأت منذ شفاء الصبى . من ذلك الحين ، كل شهر بل كل أسبوع بل كل يوم يمر كان يحسن أن حياته الداخلية تنساب منه وتتبدد ، وبدأت تحل محلها حياة خارجية كان كما لو كان قد انقلب ظهرا لبطن .

لقد أدرك سرجيوس أنه يستخدم كوسيلة لاجتذاب الزائرين ، والتبرعات للدير . ولذلك فقد رتبت سلطات الدير جميع الأمور بحيث تحسن استغلاله بقدر الامكان ، فمثلا رأوا أنه من غير اللائق أن يقوم بأى عمل يدوى ، فقرروا أن تقدم له كل احتياجاته كل ما طلبوه منه ألا يرفض تقديم بركاته لمن يلتمسها . ورغبة فى توفير الراحة له ، حدود الأيام التى يسمح فيها باستقبال الزائرين ، وجهزوا حجرة استقبال للناس وأحاطوا المكان الذى يجلس فيه بافريز معين من السلاسل حتى لا يزحمه الزائرون خصوصا السيدات . . . كما يمكنه بسهولة أن يبارك كل من يأتى إليه .

قالوا له أن الناس في حاجة اليه ، ولا يمكنه أن يرفض
رغبتهم في رؤيته ، تنفيذاً لوصية المسيح عن المحبة . .
فاذا تحدثى لقاء الناس أو رؤيتهم ، فهذا هو عين القسوة
التي تتنافى مع محبة المسيح . ونم يجد بدا من الموافقة .
وكلما استسلم لحياة الخدمة والعمل وسط الناس ، كلما شعر
أن انسانيته الباطن قد انتقل الى الخارج ، وأن ينبوع الماء
الحى فى أعماقه قد بدأ يجف . . . أحس أن كل ما يفعله
إنما يصنعه بالأكثر من أجل الناس لا من أجل الله .

عندما كان يعظ الناس ، أو يباركهم فقط ، أو يصلى
من أجل المرضى ، أو يقدم مشورته من أجل حياتهم أو عندما
كان يسمع عبارات الشكر والمديح من أفواه الاخوة الذين كان
يقدم معونته اليهم سواء بالتعاليم أو الصدقات أو الشفاء - كما
كانوا يؤكدون له - فى كل حالة من هذه الحالات لم يستطع
أن يقاوم شعوره الدفين بالرضى والسرور ، ولم يستطع
أن يواجه النتائج التى حققها نشاطه ، أو التأثير الذى يبدو
واضحاً من معاملاته ، لم يستطع أن يقابل هذا كله بدون
اكتراث أو يتجرد عن الانفعالات التى يثيرها مثل هذا النفوذ .
بدا له أنه نور يضىء فى هذا العالم المظلم . . . وكلما نما
هذا الشعور ، كلما أحس أن نور الحق الالهى فى داخله
كان يخبو ويضعف ويموت .

« هذا الذى أعمله ، الى أى مدى أعمله من أجل الله ،
والى أى مدى أعمله من أجل الانسان ؟ » كان هذا هو السؤال

الذى يقلق ضميره ويلج عليه فيعذبه . وكان عجزه عن الوصول الى الجواب الشافى أيسر من عجزه عن مواجهة هذه الاجابة .

كان يشعر فى أعماق نفسه ، أن الشيطان أتاح له هذا النشاط بين الناس لكي يحل محل نشاطه الروحى السابق أمام الله . أدرك ذلك ، ورأى كيف كان يشق على نفسه أن ينتزع من وحدته وسكونه أما الآن فقد صارت هذه الوحدة أمرا صعب المنال . كان اتزائرون يضغطون عليه ويرهقونه ، ولكنه فى قرارة نفسه ، كان يغتبط بوجودهم ويسره المديح الذى يكيلونه له .

فى احدى المرات قرر أن يهرب بعيدا ويختفى . . . وأعد كل شيء لتحقيق هذه الخطة . . . أعد لنفسه قميصا يشبه قمصان الفلاحين كما أعد باقى الملابس التى سيتدخى فيها، السروال والمعطف والطاقيه . ولكى يطفىء فضول السائلين ادعى أنه يريد هذه الأشياء حتى يقدمها للمحتاجين اليها . واحتفظ بهذه الملابس فى قلايته ، ورتب كل شيء : كيف يلبسها ، يقص شعره ثم يهرب بعيدا . . .

قرر أن يقطع الثلاثمائة فرسخ (ميل روسى = ٣٥٠٠ قدم) الأولى بانقطار ، بعدها يترك القطار ليمشى من قرية الى أخرى . وقد استفسر من أحد الشيوخ ، كان جندياً فيما قبل ، كيف يمارس سياحته ، وأى الناس يسخو فى العطاء، والمأوى الذى يقدمونه للسياح الأتقياء . وشرح له الشيخ

ووصف له الأماكن التي يتميز سكانها بالسخاء في العطاء ،
وأين يرحبون بالغرباء ويفتحون أبوابهم لضيافتهم أثناء
الليل ، ووضع الأب سرجيوس في نفسه أن ينتفع بهذه
المعلومات . . . وفي إحدى الليالي ، استبدت به الرغبة في
الهروب فارتدى الملابس التي أعدها ، ولكنه تردد وهو يتساءل
أيهما أفضل : أن يبقى أم يمضي ؟ ولم يستطع أن يجزم أو
يحسم الأمر . . في البداية كان يساوره الشك والقلق ،
ولكنه بعد ذلك تجاوز محاسبة انضمامه ، واستسلم إلى
ما اعتاده من ممارسات يومية ، أخلد إلى شيطان التراخي
والكسل . . ولكنه كان يتذكر ثورة الضمير والاحساس
بالجفاف كلما وقعت عيناه على قميص الفلاح .

في كل يوم كان يتزايد عدد الناس الذين يتجهرون
حوله ، حتى لم يكف يجد الوقت الكافي لممارسة الصلاة
وتجديد قواه الروحية . في بعض الأحيان تومض في ذهنه
الخواطر . . يرى نفسه كأنه مكان جف ينبوعه « كإن هناك
ينبوع صغير من الماء الحى . . وكان هذا ينبوع ينساب في
وعن طريقى . . تلك كانت هى الحياة الحقيقية . . . ذلك
الزمان الذى جربتنى فيه المرأة باغرائها ، . . كان يتذكر
دائما تلك الليلة ، ويتذكر تلك المرأة التى صارت الآن الأم
أجنس . . عندما يتذكر هذه الخواطر كان يحس بنشوة
السرور . . لقد ذقت ذلك الماء النقى الحى ، ولكن . . منذ
ذلك الحين لم يتوفر الوقت لكى تجتمع المياه أمام العطاش
الذين دأبوا على التجمع معا يزاحم بعضهم بعضا . . لقد

داسوا بأقدامهم على كل شيء حتى لم يعد هناك شيء سوى
الطين والوحل .

هكذا كان يفكر فى لحظات الاشراق والشفافية ، ولكن
احساسه العادى كان شعورا بالتعب والملل ، وكان يحس
على نفسه ويعطف على ذاته بسبب هذا الارهاق .

وجاء الربيع وفى احدى ليالى عيد البنتيكستى (حلول
الروح القدس) كان يؤدى صلاة عشية فى كنيسة المتوحدين
حيث اجتمع المصلون على قدر الكنيسة الصغيرة حوالى عشرين
شخصا ، وكان جلهم من الأثرياء والتجار . وكان الأب
سرجيوس يستقبل أى شخص بعد ذلك ، الا أن أحد الآباء
الرهبان انتدب من الدير وكان عليه أن ينظم الراغبين فى
الدخول اليه فيختار من يسمح لهم بالدخول . وفى خارج
الكنيسة تجمع ما يقرب من الثمانين شخصا - سياح وحجاج
وفلاحين وفلاحات - فى انتظار خروج الأب سرجيوس لكي
يباركهم . فى هذه الأثناء كان يرفع الصلوات الطقسية حتى
حان الموعد الذى يخرج فيه الى قبر سلفه فاذا به يترنح
ويكاد يسقط لولا أن أمسك به أحد التجار كان واقفا
خلفه ، والراهب الذى كان يقوم بعمل الشماس .

وتصايحت النساء : ما الخبر ، وماذا حدث لأبينا
سرجيوس ؟ الرجل المحبوب . . .

يا الله . . . انه شاحب جدا كالملاء البيضاء . . .
ولكن الأب سرجيوس استعاد توازنه بسرعة ، ومع أنه

كان شاحب الوجهه الا أنه أزاح التاجر والراعي بجانبها ،
وواصل ترتيب الخدمة .

تقدم اليه الأب سيرافيم والشماس والاغسطس والسيدة
صوفيا ايفانوفا التي كانت تقيم على مقربة من الدير ، وتعتنى
باحياجات الأب سرجيوس ، وطلبوا اليه أن يعجل بانتهاء
الخدمة .

ولكن الأب سرجيوس أجابهم : لا . . . ليس هناك ما يقلق
أو يستوجب ذلك .

وارتسمت ابتسامة خفيفة على شفثيه ، يظللها شاربه
الذي امتد في وسط لحيته المسترسلة الطويلة . . . « نعم
هكذا كان يتصرف الآباء القديسون » .

وسمع في تلك اللحظة صوت صوفيا ايفانوفا خلفه وهي
تقول : « رجل قديس . ملاك من قبل الله » وأمن التاجر ،
الذي أسنده ، على قولها . لم يعر رجاءها التفاتا ومضى يواصل
صلاة الخدمة . وعندما عاد من مقبرة سلفه ، كان الناس قد
ازدحموا من جديد في الكنيسة ، وأتم الأب سرجيوس صلاة
الساعة الثانية عشر وان كان قد أوجز فيها قليلا .

وبعد انتهاء الخدمة ، أعطى الأب سرجيوس البركة
للحاضرين ثم خرج ليجلس تحت شجرة السرو عند مدخل
المغارة . . . كان يريد الراحة وأن يستنشق الهواء العليل . . .
كان يشعر أنه في حاجة الى ذلك . ولكنه ما كاد يبصر
الكنيسة حتى اندفع اليه الناس يطلبون بركته ويلتمسون

ارشاده ونصحه ويأجرون في طلب المعونة . كان هناك جماعة من السيامح الذين يتنقلون بين الأماكن المقدسة ، ويطوفون بالتسماك والمتوحدين تستهويهم مدافن القديسين ويجذبهم شيوخ الرهبان . كان الأب سرجيوس يعرف جيدا هذا النوع الذائع من التدين التقليدي البارد ولو أنه في نفس الوقت لا يمت الى روح التدين الصحيح . كان معظم هؤلاء الحجاج من الجنود المسرحين ، الذين لم يعتادوا الحياة المستقرة المنتظمة عليهم علامات الفقر المدقع ، وكثيرون منهم كانوا من العجائز الذين اعتادوا الشراب ، والانتقال من دير الى آخر لمجرد طلب الطعام . وبين المنتظرين كان عدد من الفلاحين خشنى الطباع ، وعدد من الفلاحات كلهم أتوا سعياً وراء طلباتهم وحاجياتهم الشخصية . وبعضهم يلتمس الشفاء والبعض الآخر يسأل النصيحة في تدبير شئونهم العملية وحل مشاكلهم : زواج ابنة ، استئجار دكان ، شراء قطعة أرض . . . هذه تسأل كيف تكفر عن ذنبها لانها مالت بجسدها وهي نائمة على طفلها فمات ، وذاك يريد أن يكفر عن خطيئة زنا . . .

كل هذه كانت قصص معادة ، ليس فيها ما يستهويه . وكان يعرف مقدما أنه لن يسمع شيئا جديدا من هؤلاء الناس وبالتالي لن يستثيروا مشاعره الروحية . ومع ذلك فقد كان يحب أن يتكالب عليه الناس الذين صارت لهم نصائحه وبركاته من ضرورات حياتهم الثمينة . ولهذا فمع أن هذا الجمع كان يرهقه ، الا أنه كان يشبع رغبته ويملاه بالسرور . بدأ الأب سيرافيم يصرقهم معلنا لهم أن الأب سرجيوس متعب

عليه ، الا ان الأب سرجيوس تذكر كلمات الانجيل : دعوا
الأولاد يأتون الى ولا تمنعوهم . وساوره شعور رهيف رقيق
بالرضى عن نفسه ، عندما خالجه هذه الخواطر ، وقال للأب
سيرافيم أن يسمح لهم بانتقدم اليه .

ونهض الأب سرجيوس قائما ، واتجه نحو الافريز حيث
تجمع الجمهور وبدأ يباركهم ويحيب على أسئلتهم ولكن بصوت
خافت ضعيف جعله يرثى لنفسه ويشفق على ضعفه . ومع أنه
كان مستعدا لاستقبال الجميع الا أنه لم يتمكن من ذلك . بدأت
الأشياء تظلم أمام عينيه ، وترنح ثانية فتشبث بالافريز حتى
لا يقع . شعر بالدماء تندفع حارة الى رأسه ، فشحب وجهه .
ثم أحمر فجأة . . « يجب أن أترك الباقيين الى الغد ، لا يمكنني
أن أعمل أكثر من ذلك . . الآن » . ورفع صوته يتلو البركة
الرسولية ثم عاد الى مقعده . وأسرع التاجر يسنده ثانية
ويمسك بذراعه ويقوده حتى يجلس .

وترامت اليه أصوات الجمهور : أبونا . . أبونا المحبوب!
لا تتركنا . . بدونك لا بد أن نهلك !

وبعد أن أجلس التاجر الأب سرجيوس على مقعده تحت
شجرة السرو ، أخذ على عاتقه القيام بدور رجل البوليس
وأصر على انصراف الناس . صحيح أنه كان يتكلم بصوت
خافت حتى لا يسمعه الأب سرجيوس ولكن كلماته كانت حادة
غاضبة . . « هيا خارجا ، هيا خارجا ! ألم يمنحكم البركة ،
ماذا تريدون أكثر من ذلك ؟ هيا اخرجوا ، والا دقت

أعناغكم ! تحرك هناك .. هيا أيتها العجوز واسحبي معك
شرائط وجليك القدرة ! هيا هيا .. الى أين تشق طريقك
يا هذا ؟ لقد قيل لكم أن الزيارة قد انتهت . غدا يدبر الله
حسب مشيئته ، أما اليوم فقد انتهى .. » .

وقالت إحدى العجائز : الأب سرجيوس .. يكفي فقط
أن تسمح لي أن ألقى نظرة الى وجهه المبارك .

— سأقوم بذلك بدلا منك .. الى أين تتدافعين ؟ وتحشبرين

نفسك ؟

لاحظ الأب سرجيوس أن التاجر يعامل الناس بخشونة
وفظاظة ، وفي صوت منهك النبرات طلب الى خادمه أن لا ينبغي
أن يطرد الناس . كان يعلم أنهم سوف ينصرفون بطريقة أو
بأخرى . وكان يتوق أن يتركه الناس يخلد الى وحدته
ليستريح ، ولكنه أرسل خادمه بتلك الرسالة حتى يترك
تأثيرا حسنا وانطبعا راضيا في نفوس الجمهور .

وعندما وصلت الرسالة الى التاجر ، أجاب قائلا : حسنا
حسنا ! انى لا أطردهم .. ولكنى أعاتبهم .. أنت تعلم أنهم
لن يترددوا شئ التزاحم حتى يطاء بعضهم بعضا ، ولو أدى
ذلك الى موت أحدهم .. ليس عندهم رحمة ، انهم لا يفكرون
الا فى أنفسهم .. ألم أقل لكم من المستحيل أن تروه هذه
الليلة .. هيا خارجا : غدا ان شاء الله ! واستطاع أخيرا
أن يتخلص منهم جميعا .

لقد احتمل كل هذا العناء لأنه كان يحب النظام كما يحب

السيطرة على الغير ، وأن يطرد عامة الناس بعيدا ، الا أن
السبب الرئيسي كان رغبته فى الانفراد بالأب سرجيوس .
كان رجلا أرملًا ، له ابنة وحيدة مريضة لم تتزوج بعد . وقد
تحمل مشاق السفر بها ما يزيد على ألف وأربعمائة فرسخ
لكى يأتى بها الى الأب سرجيوس لكى يشفيها . لقد ظل طوال
السنتين السابقتين يطرق بها مختلف الأبواب لعلاجها ، ذهب
بها الى المستشفى الجامعى فى العاصمة بلا جدوى ، ثم أخذها
الى أحد الفلاحين فى سمارة حيث تحسنت قليلا ، ثم اصطحبها
الى أحد الأطباء فى موسكو حيث أنفق الكثير من المال على
علاجها . . . ولكن دون أن يظفر بشيء يذكر . ولما سمع أن
الأب سرجيوس لديه موهبة الشفاء ، أتى بها اليه . وعندما
خلا المكان من جمهور الناس ، اقترب هو من الأب سرجيوس ،
وسقط ساجدا أمامه على الأرض ، وهو يصيح بأعلى صوته :

— أيها الأب القديس ! بارك ابنتى المعذبة حتى تشفى من
مرضها . مستعد أن أسجد عند قدميك الطاهرتين . . .

وضع يدا فوق الأخرى ، على شكل الكأس . وكان يقول
ويفعل كل هذا كما لو كان يؤدي طقسا مفروضا . . . وكان
لا سبيل الى طلب شفاء الابنة الا بأداء هذه الحركات الطقسية!
كان يؤدي هذه الأمور بحزم واقتناع الى درجة تصور معها
حتى الأب سرجيوس أن هذه هى الطريقة المثلى للقول والفعل .
ومع ذلك فقد أمره بالنهوض ، وأن يروى له متاعبه وضيقة
نفسه . وقص عليه التاجر أن ابنته التى تبلغ من العمر
اثنتين وعشرين سنة ، أصيبت بمرض عضال منذ سنتين بعد

وفاة والدتها فجأة • لقد حزنت الفتاة وأفرطت في حزنها ،
وحدث لها ما حدث • وها هو قد أحضرها ، وقطع معها ألف
وأربعمائة فرسخ •• وها هي تنتظر في دار الضيافة ، حتى
يأمر الأب سرجيوس بإحضارها • انها لم تبارح مكانها طيلة
النهار لانها تخشى النور ، ويمكنها أن تأتي بعد غروب
الشمس •

وسأل الأب سرجيوس : هل تعاني من ضعف شديد ؟

- لا •• أنها لا تشكو من ضعف خاص • انها ممتلئة
الجسم ، ولكنها - كما يقول الأطباء - مصابة بالنورستانيا •
فقط لو سمحت بأن أحضرها لك في هذه الليلة ، يا أبانا
سرجيوس ، لجريت في سرعة الريح لكي آتى بها •• أيها الأب
القديس ! ألا تريد أن تنعش قلب أب مسكين ، ترد اليه
وحيدته وتنقذها من علتها بصلواتك •

ووقع - مرة أخرى - على الأرض ساجدا ، وانحنى برأسه
على قبضتيه ، وظل رابضا عند قدمي الشيخ القديس • وطلب
اليه الأب سرجيوس ثانية أن ينهض •• وتأمل الأب في كثرة
شواغله ، وازدحام وقته بمثل هذا النشاط وكيف كان عليه
أن يتحمل كل هذا في صبر وطول أناة •• ثم تنهد بعمق
وزفر زفرة حارة ، وبعد فترة من انصمت عاد يقول :

- حسنا •• أحضرها لي هذه الليلة • سوف أصلي من
أجلها •• أما الآن فاني متعب •• ثم أغلق عينيه يقول :
سأرسل أستاذك •

ومضى التاجر يمشى على أطراف أصابعه ، مما جعل حذاءه
يصدر صريرا عاليا .. وبقي الأب سرجيوس وحيدا .

كانت كل حياته لا يملأها سوى خدمة الكنيسة والشعب
الذى كان يلجأ إليه ، الا أن هذا اليوم بالذات كان يوما
مرهقا . ففي الصباح وصل أحد كبار الموظفين وعقد معه
نقاشا طويلا ، وبعد ذلك حضرت إحدى السيدات مع ابنها ،
وكان هذا الابن مدرسا صغير السن من أنصار مذهب الشنك .
ولكن أمه التقية التى تتمتع بحرارة الايمان ، وتثق فى الأب
سرجيوس رأت من الواجب أن تحضر ابنها للحديث مع الشيخ
الروحانى . أما الشاب الذى كان يبدو بوضوح أنه لا يريد
الدخول فى جدل عنيف مع الراهب ، فقد وافقه على كل شيء
كأنه يحاول أن يرضى انسانا يقل عنه ذكاء وحكمة . وقد
لاحظ الأب سرجيوس أن الشاب لم يقتنع أو يؤمن ، ومع ذلك
فقد كان راضيا هادىء النفس .. ولكن الآن وهو فى هذا
الهدوء والسكون ، عندما عادت أطراف الحديث الى ذاكرته
شعر بالقلق والضيق ..

وأقبل خادمه يقطع السكون قائلا : هل لك فى شيء من
الطعام ، يا أبى ؟

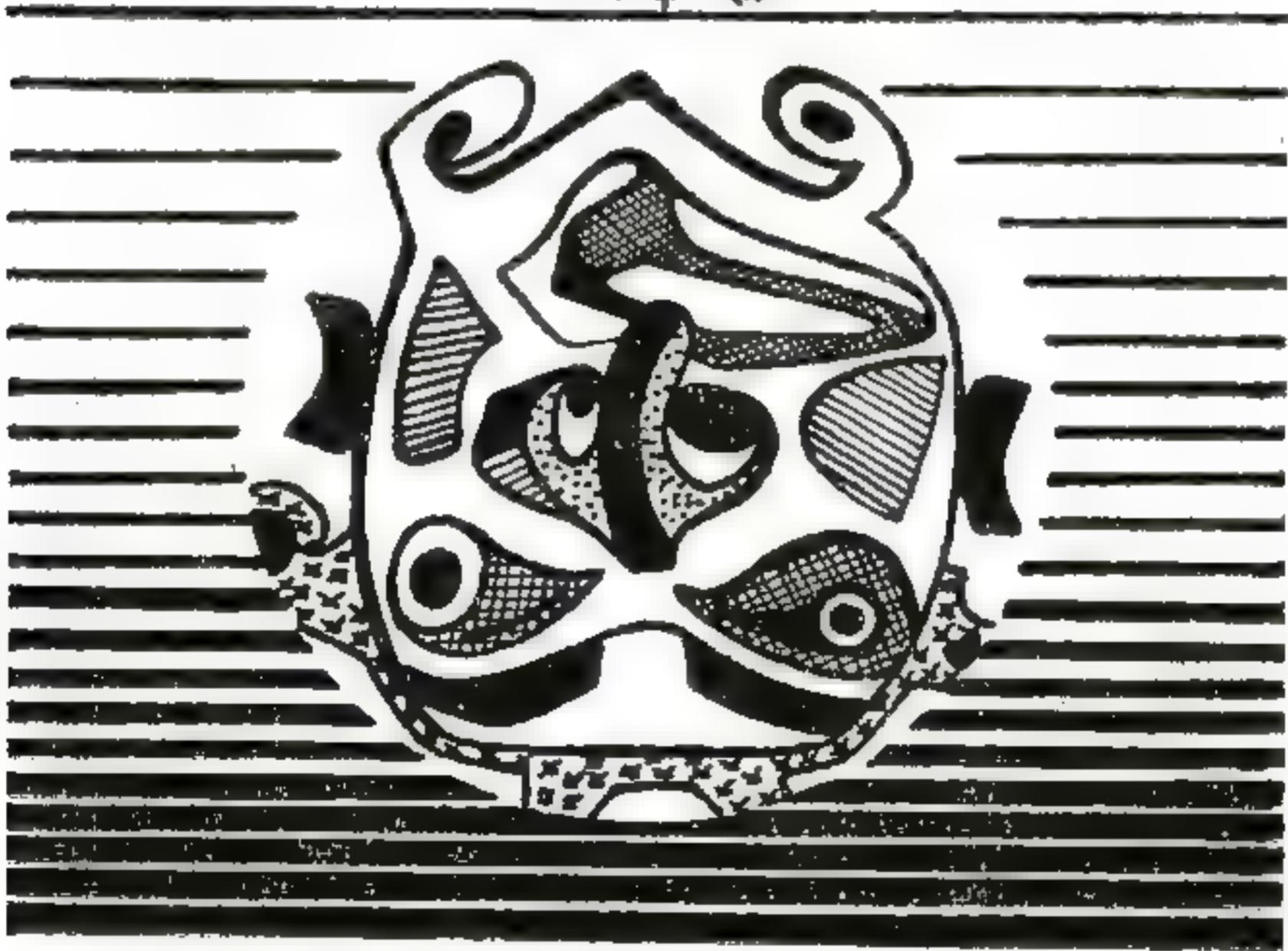
- لا بأس . ايتنى بشيء أتبلغ به .

ومضى الخادم الى كوخ أعد على مقربة من المغارة ، وأخذ
الأب سرجيوس الى خلوته . لقد مضى الآن زمن طويل منذ أن
كان يخدم نفسه بنفسه ، ولا يأكل سوى الخبز المخلوط أو

قربان الكنيسة . لقد نصحوه في ذلك الزمان أنه لا يحق له أن يهمل صحته ، ومنذ ذلك الحين حرصوا على تقديم أفضل وأجود الأطعمة له ولو أنها من البقول . كان يتناول الطعام بقدر . ولو أنه أكثر من ذى قبل . وكثيراً ما كان يتلذذ بالطعام بعد أن كان يأكل ناقراً لأن احساسه بالندم على خطاياها كان يفقده كل شهية لارضاء البطن لقد عاوده هذا الاحساس الآن . تناول بعض الحساء ، وشرب كوباً من الشاي وأكل نصف قربانة ومضى الخادم ثانية ، وظل الأب سرجيوس وحيداً تحت شجرة السرو .

كانت ليلة من ليالى شهر مايو البديعة ، التي تفتحت فيها الأزهار ، واكتسبت الأشجار بأوراقها الخضراء كانت شجيرات الكرز البرى خلف شجرة السرو فى أوج ازدهارها وعلى وشك ظهور الثمار ، وأخذت البلابل - وكان أحدها قريباً جداً منه وأثنان أو ثلاثة آخر فى الشجيرات بجوار النهر - أخذت تنجى وتنغم بأغانيتها الشجية بعد عزف مبدئى بشمشمقاتها البديعة . ومن عند النهر تواترت الى أذنيه أغاني الفلاحين فى عودتهم من أعمالهم . مالت الشمس الى المغرب وراء الغابة ، وألقت أشعتها المتوهجة بين أوراق الأشجار . كان الجانب القريب منه يمتاز بخضرة لامعة ، بينما زان ظلام الظلال على الجانب الآخر من شجرة السرو . وحامت إحدى الحشرات السوداء القارضة حوله ثم سقطت على الأرض عندما اصطدمت بشيء ما .

وبعد العشاء ، بدأ الأب سرجوس يردد صلاة ضامته :



يا ربى يسوع المسيح ابن الله ارحمنا كعظيم رحمتك . . ثم
بدأ يتلو أحد المزامير . وفجأة عندما وصل الى منتصف المزمور
طار هدهد من الشجيرة ثم استقر على الأرض وأخذ يقفز قفزاته
القصيرة متجها نحوه وهو يطلق شقشقتة الجذلة . . ولكنه
بعد حين باغته خوف مفاجيء ثم طار بعيدا .

وصلى الأب صلاة خاصة تتناول احتقار أباطيل العالم
وتركه اياها ، وقد تلاها بشيء من التسرع حتى يرسل فى
طلب التاجر مع ابنته العليلة . لقد وجه عنايته الى هذا
الموضوع ، لأنه كان يؤدي الى تشتيت ذهنه ، ولأن كلا من
الفتاة وأبيها اعتبره قديسا ، صلواته لها مفعول أكيد ، ونتيجة
مضمونة . فى الظاهر كان يستهجن مثل هذه الفكرة ويقاومها ،
ولكنه فى أعماق روحه كان راضيا عنها ويعتبرها حقيقة
صادقة .

كثيرا ما كان يرجع بالذاكرة الى حياته القديمة ، فيتعجب
ان كل هذا قد حدث معه . . هو . . استيفان كازاتسكى .
يتحول عن حياته ليصير قديسا عجيبا . . بل وصانع آيات
ومعجزات . . وصل الى هذه الدرجة العالية . . شىء عجيب
حقا ، ولكن هذه هى الحقيقة . . لا مرأى فيها . . لم يكن فى
مقدوره الا أن يسلم بسلطانه فى عمل المعجزات التى كان
يراهها تحدث أمام عينيه ، من أول الصبى المريض حتى المرأة
العجوز التى استردت بصرها عندما صلى لأجلها .

ومع غرابة هذه الأمور ، الا أن هذا هو الواقع . . .

وبالتالى فقد أثارت ابنة التاجر اهتمامه لأنها تؤمن به وبقدرته .
ثم انها فرصة جديدة متاحة لاثبات قدرته على شفاء المرضى ،
وذيوع شهرته . . « انهم يأتون بالمرضى من آلاف الفراسخ ،
ويكتبون عن ذلك فى الصحف . . لا شك أن هذه الآيات قد
بلغت مسامع الامبراطور . . بل ذاع أمرها فى أوروبا . . .
أوروبا القاسية الجاحدة للايمان » وعندما بلغت أفكاره هذا
القدر ، خامره شعور بالحجل والحزى بسبب غروره ، فبدأ
يصلى من جديد : يا رب . . أيها الملك السمائي ، المعزى ،
روح الحق ، الحاضر فى كل مكان ، مالى الكل ، كنز الصالحات
ومعطى الحياة ، هلم تفضل وحل فى وطهرنى من كل شر .
خلصنى وبارك حياتى وروحى . طهرنى من خطية الغرور
والمجد الباطل ، الذى يقلق نفسى . . « وكرر هذه الصلاة ،
وتذكر أنه كثيرا ما يتضرع من أجل هذه الطلبة . . ولكن حتى
الآن دون فائدة . . . صلواته تصنع المعجزات للآخرين . . .
ولكن بالنسبة لنفسه ، فإن الله لم يحوره بعد من هذه العاطفة
السخيفة .

تذكر صلواته فى بداية عهده بحياة الوحدة ، عندما كان
يصلى ويطلب الطهارة والنقاء ، والاتضاع والمحبة . . وكان
الله يستجيب هذه الصلوات ، ألم يحتفظ بطهارته ويقطع
أصبعه؟! لقد رفع ذلك الاصبع المقطوع من الأرض الى شفثيه
وقبله . . . الآن عندما يتذكر تلك الفترة من حياته يرى أنه
كان وديعا متواضعا . . فقد كان يبغض نفسه ويحتقرها
بسبب كثرة خطايا وآثامه . . . تلك المشاعر الرقيقة

والأحاسيس المرهفة التي قابل بها ذلك الرجل الأشيب وهو
يقود أحد الجنود السكارى يطلب عمل المحبة والصدقة . . .
ذلك الحنان الذي ملأ قلبه وهو يستقبلهما . . لا شك أنه في
ذلك الحين كان قلبه يجيش بالمحبة . أما الآن؟! وسأل نفسه
ان كان يحسن بالحب ازاء انسان ما ، هل يحب صوفيا
ايفانوفا ، أو الأب سيرافيم ؟ . هل شعر بعاطفة الحب ازاء
كل الذين أتوا اليه وقصدوه في ذلك اليوم ؟ . هل أحب
ذلك الشاب المثقف ، الذي اهتم بالحوار معه لا لشيء الا لكي
يقارعه الحجة بالحجة ويثبت طول باعه في المعرفة ، وعلوكعبه
في الذكاء ويؤكد أنه ليس متخلفا عنه في ميدان الحكمة
والمعرفة . . . انه يطلب ويريد محبة الناس ويشعر بالحاجة
اليها ، ولكنه لا يشعر بها أو يقدمها لأحد . . . لقد بدت له
حقيقة نفسه . . فلا هو اقتنى المحبة ، ولا ازدان بالاتضاع ،
ولا نما في حياة الطهارة ! . .

ابنة التاجر في الثانية والعشرين . . راقى له هذه
الفكرة ، ولكن أعلها جميلة الصورة ؟ عندما سأل أباهما عما
اذا كانت ضعيفة ، كان في الواقع يريد أن يعرف عما اذا
كانت تتمتع بجمال الأنوثة . . .

« هل سقطت الى هذا المستوى ، وانحدر تفكيري الى هذا
الحد . . . يا رب اعنى ، اللهم التفت الى معونتي ، يا رب
أسرع وأعنى ! . . ردى اليك يا ربى والهى » . ثم ضم قبضتيه
وبدأ يصلى .

وانطلقت البلابل تصدح بالغناء ، وارتطمت به احدى الحشرات الطائرة وأخذت تمشي على قفاه فنفضها بعيدا عنه بيده « ولكن هل الله موجود حقا ؟ ماذا يكون الحال اذا كنت أقرع بابا موصدا من الخارج ؟ والقضيب مثبت على الباب لكن يراه الجميع . . . الطبيعة - بما فيها من بلابل وحشرات - هي هذا القضيب . . . ربما كان ذلك الشاب المثقف على حق » . . ثم أخذ يردد صلواته بصوت مرتفع .
وظل على هذه الصورة ، يصلي ويصلي حتى تلاشت تلك الأفكار ، واسترد هدوءه وجدته تثمته ويقينه . . ثم دق الجرس وأخبر الخادم أن يعلن للتاجر أنه يستطيع أن يحضر ابنته انيه الآن .

وأقبل التاجر يقتاد ابنته بذراعها . . . أدخلها الى القلاية وتركها سريعا . كانت الفتاة على قسط وافر من الجمال ، ممتلئة الجسم ولكنها قصيرة جدا تبدو على وجهها بساطة الطفولة تختلط بشيء من الوجع والشحوب . . . من الواضح أنها ناضجة الأنوثة . ظل الأب سرجيوس جالسا على مقعده عند المدخل ، وعندما مرت به توقفت بالقرب منه تطلب بركته . . . وداهمه شعور غريب بالذعر . . بسبب الطريقة التي نظر بها الى قوامها . عندما جاوزته ، كان احساسه بأنوثتها احساسا حادا ، مع أنه أدرك من ملامحها أنها ضعيفة العقل ، تميل الى الماديات والجسديات . نهض ودخل قلايته فوجدتها جالسة على أحد المقاعد الصغيرة في انتظاره . . وقد هبت واقفة عندما رآته يدخل .



طرحت کثیرین جراحی وکل قتلها اقویاء

- وقالت : اننى أريد أن أرجع الى بابا .
- فأجاب : لا تخافى . . ماذا يؤمك ؟ ومم تشكين ؟
- ان الألم يملأ كل كيانى . . وعندما قالت هذا أضواء وجهها فجأة بابتسامة .
- سوف تخف آلامك ، وتستعيدى صحتك . . صلى .
- وما فائدة الصلاة؟ . . لقد صليت كثيرا بدون أى فائدة .
- وظلت الابتسامة ترسم على شففتيها وهى تستأنف حديثها:
- أنى أريدك أنت أن تصلى لأجلى ، وتضع يديك على . لقد رأيتك فى حلم . . .
- وكيف رأيتنى ؟
- رأيتك تضع يديك على صدرى هكذا .
- وأخذت يده وضمتها الى صدرها بقوة ، وهى تقول :
- هنا . . . هنا بالضبط .
- وترك يده اليمنى لها وعاد يسأل : ما اسمك ؟ وأحس برعدة قوية تسرى فى أوصاله ، وأيقن فى قرارة نفسه بالهزيمة وشعر أن نوازع الجسد تلتهب فى كيانه ، وأنها فاقت كل حدود الضبط والقمع .
- مارى . . . لماذا ؟
- وأخذت يده وقبيلتها ، ومدت ذراعها حول وسطه ، والتصقت به .
- ماذا تفعلين ؟ . . . مارى . . . انك شيطان .

- ربما .. وما أهمية ذلك ؟

وجذبتة اليها ثم جلست معه على الفراش .

* * *

عند الفجر ، مضى الى المدخل الصغير المظلم .. « هل يمكن أن يحدث كل هذا ؟ سوف يأتى أبوها ، وتخبره بكل شيء .. »
انها شيطان .. ماذا ينبغي أن أصنع ؟ ها هو الفأس الذى قطعت به أصبعى » . وأمسك بالفأس وقفل راجعا الى مغارته

جاء خادمه فقال : أملكك يا أبى فى حاجة الى بعض الأخشاب .. اعطنى الفأس يا أبى ، وسأقوم أنا بذلك .

وسلم سرجيوس الفأس ، ثم دخل المغارة ... كانت هناك راقدة تغط فى نوم عميق .. ونظر اليها فى فزع ، وخرج من الباب وأخذ ملابس الفلاح وارتداها . ثم أمسك بالمقص وجز شعره الطويل ، وعبر الممر بسرعة وانحدر فى الطريق الجبلى المؤدى الى النهر ... لقد مضت ثلاث سنوات منذ أن كان هناك فى آخر مرة .

كان الطريق يمتد بجوار النهر ، وواصل المسير حتى منتصف النهار .. ثم دخل أحد الحقول ووجد هناك بين أعواد النباتات .. وعند مغيب الشمس وصل الى إحدى القرى ولكنه لم يدخل فيها بل أتجه قدما الى الصخرة المعلقة التى كانت تطل على النهر . وهناك رقد ثانية .. أراد أن يلتقط أنفاسه ويستريح .

وفى الصباح الباكر ، قبل مطلع الشمس بحوالى نصف ساعة . . . كان الجو رطباً قاتماً ، وكان الهواء يلفح وجهه من الغرب . « نعم . . . لا بد أن أنتهى من كل شىء » . ليس هناك اله . . . ولكن كيف ينبغي أن أضع حداً لحياتى ؟ ألقى بنفسى فى النهر ؟ أعرف السباحة . . . ولا أغرق . . . أشنق نفسى ؟ نعم . . . يكفى أن أعلق هذا الحبل فى فرع شجرة . . . « بدأ له هذا الحل عملياً جداً ، ومن السهولة بمكان . . . لكن داخله شعور قوى بالرعب والرهيبة . وكما جرت عادته فى لحظات اليأس والقنوط ، شعر بالحاجة الى الصلاة . . . ولن يقدم الصلاة ؟ لا يوجد اله . . . ظل راقداً وهو يستند على ذراعه . وأخذت تتسلسل الى نفسه رغبة فى النوم ثم يستطيع أن يقاومها ، ولم تعد لديه القدرة أن يحتفظ برأسه معتمداً على يده ، فمد ذراعه وأراح رأسه واستسلم للنعاس . ولكن هذا النعاس لم يدم طويلاً ، فاستيقظ متعباً وبدأ يفكر من جديد ، ويستعيد كل ما حدث فى خياله .

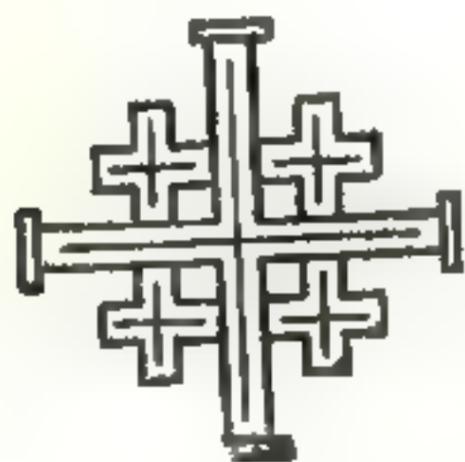
رجع بخياله الى أيام طفولته فى بيت أمه فى الريف . . . ها هى إحدى العربات تصل عند الباب ، ويترجل منها العم نيقولاس سيرجيفيتش بلحيته السوداء الطويلة التى تشبهه الجاروف ، وتنزل معه باشنكا الصغيرة ، بقوامها النحيل ، وعينيها الواسعتين الرقيقتين ووجهها العطوف الخجول . وكان يجب عليه مع بقية الأولاد أن يلعبوا معها ، وكان هذا يفضى الى نفسه ، فهى سخيفة . وكان ينتهى بهم الأمر الى السخرية منها ، ويرغمونها على السباحة حتى يقيتموا

مقدرتها على ذلك ، فكانت ترقد على الأرض وتريهم طريقة
السباحة فيضحك عليها الجميع ، ويهزأوا بحماقتها . وعندما
كانت تتبين خبث خديثهم ، كان يحمر وجهها خجلا ، وترتبك
مما يجعلها جديرة بالثناء أكثر من ذى قبل مستسلمة
مسكينة جدا حتى كان يشعر بالحجل . . انه لا يستطيع
أن ينسى ابتسامتها الودية المغتصبة . . وتذكر سرجيوس
أنه رآها بعد ذلك . بعد أيام الطفولة بزمن طويل ، وقبل
أن ينضم في سلك الرهبنة ، تزوجت من أحد الملاك . .
وللأسف بدد كل ثروتها ، وكثيرا ما كان يعتدى عليها
بالضرب ! ثم أنجبت طفلين ، ولد وبنت ولكن الصبي مات
وهو ما زال حدثا يافعا . . . لقد رآها سرجيوس في منتهى
التعاسة واليؤس . ثم رآها مرة أخرى في الدير وهي
أرملة . . كانت على عهده بها ، ليست غبية بانضبط ، ولكنها
سلبية تافهة . . مسكينة . لقد أتت في صحبة ابنتها
وخطيبها . . كانوا فقراء ، وآثار الفقر بادية عليهم جميعا .
لقد سمع بعد ذلك أنها تعيش في إحدى مدن الأقاليم في فقر
مدقع .

ثم عاد يسائل نفسه « ما الذى جعلنى أفكر فيها ؟ »
ومع ذلك لم يستطع أن يكف عن التفكير فيها « . أين هى
يا ترى ؟ وكيف تعيش ؟ هل ما زالت بائسة شقية كما كانت
عندها كانت ترىنا كيف تكون السباحة على الأرض ؟ ولكن
لماذا أفكر فيها على هذا النحو ؟ ما هذا الذى أفعله ؟ لا بد
أن أضع حدا لحياتى » .

وبدأ الخوف يتجمع من جديد في قلبه ولكني يهرب
من هذه المخاوف ، استرسل في خواطره حول باشنكا . .
لقد تجلت في خواطره كوسيلة من وسائل الخلاص . وفي
النهاية راح في نوم عميق . وفي منامه رأى ملاكا يقبل اليه
ويقول : اذهب الى باشنكا ، وهناك تتعلم منها ما ينبغي
أن تصنعه ، وتعرف ما هي خطيتك ، وكيف يمكن أن يكون
خلاص نفسك !

وعندما استيقظ ، أيقن أن هذه الرؤيا من قبل الله ،
وامتلات نفسه بمشاعر الفرح ، وقرر أن ينفذ ما قيل له
في هذه الرؤيا . كان يعرف المدينة التي تعيش باشنكا فيها .
كانت تبعد حوالي ثلاثمائة فرسخ . وبدأ المسير .







لم تعد باشنكا كما كانت من قبل . صارت امرأة عجوز ،
نحيلة الجسم امتلاً وجهها بالخطوط والتجاعيد تعرف باسم
براسكوفيا ميخائيلوفنا (١) ، حماة ذلك الموظف الفاشل
السكر ماثيريكيف . كانت تسكن في المدينة التي كان يشغل
فيها آخر وظيفة ، وكانت هي التي تعول الأسرة : ابنتها
وزوجها العصبي المتعب وأطفالهما الخمسة . كانت تعول هذه
الأسرة بالعمل في تدريس الموسيقى لبنات الصنائع . كانت
أحياناً تعطى أربعة أو خمسة دروس في اليوم الواحد ، وكل
درس يستغرق ساعة كاملة ، فكانت تتقاضى في مقابل هذا
العمل المرهق ٦٠ روبلا أي ستة جنيهات في الشهر . وهكذا
كانوا يرتزقون على أمل وظيفة جديدة . أرسلت خطابات
إلى جميع الأقارب والمعارف تطلب معونتهم في تعيين زوج
ابنتها . وكان الأب سرجيوس أحد الذين ناشدتهم المعونة
ولكن خطابها لم يصل إليه .

في يوم السبت كانت براسكوفيا ميخائيلوفنا تمزج
الخميرة لتعد الكعك ، كما كانت تفعل الخادمة في ضيعة

(١) هذا الاسم كان النداء الشائع الذي تنادى به الفتيات
الصغيرات ومعناه « ابنة ميخائيل » إشارة إلى رعاية وشفاعة
الملاك ميخائيل .

أبيها ، وكانت تجيد عمل الكعك . كانت براسكوفيا تريد أن تعطى حفدتها الخمسة لونا ممتازا من الطعام يوم الأحد . وكانت ماشسا ابنتها ترضع طفلها الصغير . كان أكبر أولادها وأكبر بناتها فى المدرسة . وكان زوج ابنتها يغط فى النوم ، لأنه لم يذق طعم النوم طوال الليل . وقد ظلت براسكوفيا ميخائيلوفنا يقظة قسما طويلا من الليل ، وهى تحاول أن تلتف من حدة ابنتها وغضبها على زوجها . لقد أدركت يقينا أن صهرها ، هذا الرجل الضعيف ، لا يمكن أن يكون الا هكذا . كما أيقنت أن تقريع زوجته له لن يأتى بشمر البتة . لهذا بذلت كل ما فى طاقتها حتى تهديء من عنف توبيخها حتى تتجنب تبادل انشـتائم وانفعالات الغضب . كانت المعاملات الفظة القاسية هى السبب فيما كانت تعانيه جسديا . وقد اتضح لها أن مرارة النفس والمشاعر العنيفة لا يمكن أن تؤدي الى أفضل « غضب الانسان لا يصنع بر الله » بل على العكس من ذلك كانت تؤدي الى الأسوأ والى تدهور المواقف . بطبيعة الحال لم تفكر على هذه الصورة ، ولكنها كانت تتألم وتنبرم من رؤية الغضب كما تتقزز من رائحة كريهة أو ضوضاء صاخبة أو من الضربات التى كانت تعجل عليها .

كان يجيش بنفسها شعور بانقناعة والرضا وهى تدرب لوكيريا الصغيرة كيف تخلط الخميرة ، عندما دخل حفيدها ميشا ، الذى كان يبلغ من العمر ست سنوات ، وقد ارتدى مريسته ، وجوزبه الذى خيطة خروقه الكثيرة ولكنه على أى

حال يغطي رجليه المقوستين ، دخل يهروا في المطبخ ، وعلى وجهه علامات الذعر ، وهو يصيح .

• جدتى • • جدتى • • رجل مخيف يريد أن يراك •
ومدت بصرها نحو الباب ، ثم قالت : انه أحد السياح
من نوع ما ، رجل •••

ودعكت براسكوفيا ميخائيلوفنا كوعياها بعضهما ببعض ،
ومسحت فوطتها في مريلتها ، وصعدت الى حجرتها لكي تاتي
بقطعة مالية من فئة ٥ كوبيك (٥ مليمات تقريبا) من كيس
نقودها من أجل هذا السائل • وعندما تذكرت أن أقل قطعة
مالية في الكيس هي عشرة كوبيك ، قررت أن تعطيه خبزا
بدلا من النقود • وعادت الى الدولاب ، الا أنها شعرت فجأة
بالخجل لأنها ضنت بقطعة مالية صغيرة ذات العشرة كوبيك
فنادت على لوكيريا لكي تقطع شريحة من الخبز ، بينما صعدت
ثانية لكي تحضر القطعة المالية الصغيرة ، وهي تردد في
نفسها « تستحقين ما حدث لك • هوذا يجب الآن أن تلدعي
الضعف » •

ثم أعطت النقود والخبز للسائح وهي تعتذر عن هذا
القليل الذي تقدمه • ولم يخطر في ذهنها شيء عن قيمة
عطائها أو سخائها • وشد انتباهها مظهر الرجل وهيئته
ومع أنه سار على قدميه مائتي فرسخ كسائل مسكين ، ورغم
أسمائه البالية ونحول بدنه ، وبشرته السمراء التي ضربتها
الشمس ، ومع أنه قص شعره الطويل ووضع قلنسوة الفلاح
ليغطي بها رأسه ، وفي رجليه ذلك الحذاء الطويل الذي

يلبسه الفلاحون ، ورغم أنه كان ينحنى فى مذلة ، الا أن سرجيوس كان يتمتع بتلك الطلعة الآسرة النفاذة التى كانت سر جاذبيته . ولكن براسكوفيا ميخائيلوفنا لم تتبين شخصيته لأنها لم تراه منذ ما يقرب من العشرين سنة .

- لا تسيء بى الظن يا أبى ، فلعلك فى حاجة الى شىء من الطعام ؟

وتناول منها الخبز والنقود ، ولكن انذى آثار دهشة براسكوفيا ميخائيلوفنا أنه لم يمض الى حال سبيله بل ظل يرمقها بنظرة طويلة . . ثم قال :

- باشسنا . . . لقد جئت لاجئا اليك . . اسمح لى بالدخول . . .

كان يقول هذه الكلمات ، وقد لمعت الدموع فى عينيه السوداوين الجميلتين ، وتكاد نظراته تنطق بالتوسل والمذلة والالاحاح . وتحت شاربته الأشيب ارتعشت شفثاه .

ضمت براسكوفيا ميخائيلوفنا يداها الى صدرها الجاف ، وفغرت فاهها . تسمرت قدماها وحملت فى وجه السائح الفقير ، ثم صاحت :

- مستحيل ! . . . مستيفا ! . . سيرجى ! أبونا سرجيوس !

وأجابها فى صوت منخفض : نعم هو بعينه . . فقط ليس سرجيوس أو الأب سرجيوس ولكن أعظم الخطاة - ستيفان كازاتسكى - خاطيء . . هالك . . اقبلينى عندك ولا تمنعنى عنى معونتك .

- ولكن مستحيل ! .. كيف وصلت الى هذه المذلة ؟ ..

ولكن تعال .. ادخل .

ومدت يدها اليه ، ولكنه لم يأخذها بل سار في أثرها

فقط . ولكن الى أين تأخذه ؟

فالببيت صغير .. كان عندها فيما تضي حجرة صغيرة

خصصتها لنفسها للصلاة ، ولكنها اضطرت أن تتخلى عنها

لابنتها ، وماشما تجلس فيها الآن تهدد طفلها .

وأشارت الى مقعد في المطبخ وهي تقول : اجلس هنا

الآن .

وجلس في الحال ، وبحركة لا اراديه أخذ ينزع حزام

الجراب من على كتفه ثم من على الآخر .

- يا الهى .. يا للسماء .. كيف وصلت الى هذه المهانة

يا أبى !! هذه الشهرة التي طبقت الأفاق ، والآن

على هذه الصورة ...

ولم يجر سرجيوس جوابا ، واكتفى بإبتسامة وادعة ،

وهو يضع الجراب تحت المقعد .

- ماشما .. يا ابنتى هل تعرفين من هذا ؟ ومالت

براسكوفيا ميخائيلوفنا على ابنتها وهمست ..

واسرعت المرأتان تنظيفان الحجرة الصغيرة ، فأخرجتا

فراش الطفل والأم ، وأعادتا ترتيب الحجرة وأعدتاها

لسرجيوس وأدخلته براسكوفيا وهي تقول : هنا

يمكنك أن تستريح .. أرجو ألا تتضايق ، ولكنى

يجب أن أخرج .

- الى أين ؟

- عندي درس • شيء مخجل أن أقول لك ذلك ، ولكنني

أعطي دروسا في الموسيقى •

- موسيقي ؟ هذا عمل طيب • ولكنني أريد أن أقول

لك شيئا يا براسكوفيا ميخائيلوفنا • لقد جئت اليك

ونصب عيني هدف خاص • متى يمكنك أن أتحدث

اليك ؟

- هذا يسرني جدا • هل يناسبك اليوم مساء ؟

- نعم •• ولكن هناك شيء آخر •• أرجو ألا تتكلمني

عني أو تفصحني عن شخصيتي • لقد كشفت عن

حقيقتي لك أنت وحدك • ولا يعلم أحد أين ذهبت ••

ولا يجب أن يعرف •• أيضا •

- ولكنني قلت لابنتي •

- حسنا يمكنك أن توصيها ألا تخبر أحدا •

ثم خلع سرجيوس حذاءه الطويل ، وتمدد على الفراش

وسرعان ما راح في نوم عميق ، بعد ليلة مضنية لم يعرف

فيها النوم ، وبعد عشاء طويل اذ قطع على قدميه ما يقرب

من الثلاثين ميلا •

عندما عادت براسكوفيا ميخائيلوفنا ، كان سرجيوس

في انتظارها قابعا في الحجرة الصغيرة • ثم يخرج لتناول

العشاء ولكن لوكيريا أحضرت اليه بعض الحساء وشوربة

الخضار فتناولهما •

وسأل سرجيوس : ولكنك أتيت قبل موعدك •• هل

هل يمكنك الحديث اليك الآن !

- لا يتصور أحد سعادتي باستقبال مثل هذا الضيف ..
بقي درس واحد لم أعطه .. يمكنه أن ينتظر .. طالما
فكرت في السفر لكنى أراك . وقد كتبت اليك ..
وها هو الحظ السعيد يأتى ليطرق بابى .

- باشنكا .. أرجو أن تنصتى جيدا لما سأقوله كأنه
اعتراف أقدمه أمام الله في ساعتى الأخيرة .

- باشنكا ... أنا لست قديسا كما تتصورين ، بل
ولست أفضل أى انسان عادى .. صدقيني انى
انسان خاطيء مغرور ، نجس كريبه ، دنىء انحرف
عن الصواب وابتعد عن سبيل الرب المستقيمة وصدار
أضل الناس بل أشر من أعتى الخطاة ..

ونظرت اليه باشنكا فى بادىء الأمر وحملت عيناها ،
ولكنها صدقت أقواله ، وعندما استوعبت معانيها لمست يده
فى رفق وابتسمت قائلة : لعلك تبالغ يا استيفا ..

- لا .. يا باشنكا انى رجل زان ، قاتل .. مجدف ..
ومخادع .

وصاحت براسكوفيا فى عجب : يا الهى .. كيف يمكن
أن يكون ذلك ؟

- ولكن يجب أن أواصل الحياة .. أنا ، الذى كنت
أظن أنى أعرف كل شىء ، كنت أرشد الآخرين فى طرق
الحياة .. أعترف بأنى لا أعرف شيئا ، وأرجو أن
تعلمينى وترشدينى .

- ما هذا الذى تقوله يا ستيفا ؟ ألك تضحك على ؟
لماذا تسمخر منى على الدوام ؟

- تحسنا ، اذا كنت تظنين انى أمزح فليكن لك
 ما تشائين .. ولكن - رغم ذلك - قولى لى كيف
 تعيشين ، وكيف رتبت أمور حياتك ؟
 - أنا ؟ كل حياتى شقية ورديئة ، وها هو الله يعاقبنى
 كما استحق .. حياتى تعيسة وبائسة ..
 - كيف كان زواجك ؟ .. وكيف عشت مع زوجك ؟
 - كله بؤس وشقاء . لقد تزوجت لأنى ترديت فى حب
 آثم . ولم يوافق أبى على هذا الزواج . ونكنى أصررت
 ورفضت أن أستمع لأية مشورة .. وتزوجت . بدلا
 من أن أكون معينة لزوجى ، نغصت حياته بغيرتى
 التى لم أستطع كبح جماحها .
 - سمعت أنه كان يشرب ...
 - صحيح .. ولكنى لم أسمح له بالسلام اطلاقا . كنت
 لا أكف عن توبيخه وتفريعه .. مع أن هذه الحالة
 - كما تعرف - انما هى مرض ! لم يستطع الاقلاع
 عن الخمر .. وانى لا أذكر كيف كنت أحاول أن أمنعه
 منها .. كانت مواقف مخيفة !

ثم رفعت عينيها الجميلتين الى كازاتسكى وقد بدا فيهما
 الأحساس بالألم الدفين الذى أثارتة هذه الذكريات ، وتذكر
 كازاتسكى ما قيل له عن زوجها الذى كان ينهال عليها
 ضربا .. والآن .. يرى رقبتها النحيلة ، وعروقها البارزة
 خلف أذنيها ، وضمائر شعرها الهزيل وقد وخطها المشيب ..
 أخذ خياله يرسم له صور تلك الأحداث التى كانت تجرى
 بينها وبين زوجها .

- ثم تركني ومعى طفلين • وليسى لنا أى مورد للرزق •
- ولكن كنت تمتلكين ضيعة ...

- أوه •• لقد بعناها بينما كان فازيا ما زال على قيد
الحياة ، ولم يبق من ثمنها فلسا واحدا • كان لا بد
لنا أن نعيش ، ولكنى لم أكن أعرف كيف أكسب
قوتى •• هكذا كان حال جميع الشابات •• وأنا
- خصوصا - كنت عاجزة تماما وبلا أى
منفعة • وهكذا أتينا على كل ما عندنا من مال
أو عتاد • أخذت أعلم أطفالى بنفسى كما حاولت أن
أرتقى بمستواى قليلا • ثم سقطت ميسيا طريح
الفراش وهو فى سنته الدراسية الرابعة وانتقل
الى رحمة الله • وأحببت ماشا صهرى فانيا •• و ••
حسنا •• نيته طيبة ولكنه سىء الحظ •• انه مريض •

وقاطعها صوت ابنتها يناديها : ماما ! خذى ميسيا !
لا أستطيع أن أكون فى مكانين فى وقت واحد •

وسرت رعدة فى أوصال براسكوفيا ولكنها نهضت وخرجت
متعثرة فى حذائها المرقع • وسرعان ما عادت وهى تحمل
فى ذراعها طفلا فى الثانية من عمره ، كان يلقي بنفسه
الى الخلف ويتشبث بالشال اتذى تتدثر به بكلتا يديه •

- أين وصلت ؟ آه ، صحيح • لقد حصل على وظيفة
طيبة هنا ، وكان يرأسه رجل طيب أيضا • ولكن
فانيا لم يستطع أن يواصل العمل ، فترك وظيفته •

- لماذا ؟ ما خطبه ؟

- مصاب بمرض خطير .. نورستانيا .. لقد استشرنا
الطبيب فأشار عليه بالسفر ، ولكن ليس عندنا
ما ننفقه .. انى أرجو دائما أن يزول المرض من تلقاء
نفسه .. انه لا يشكو من ألم معين ، ولكن ...

وارتفع صوت غاضب يقول : لوكيريا .. دائما تذهب
عندما أكون فى حاجة اليها .. ماما .. وقطعت براسكوفيا
ميخائيلوفنا حديثها وهى تجيب : ها آنذا آتية .. انه لم
يتناول عشاءه بعد ... ولا يمكن أن يأكل معنا .

ثم خرجت وأعدت شيئا ما ثم رجعت وهى تمسح يديها
النحيلتين السمراويتين .

- هذه هى حياتى .. شكوى مستمره .. ولا قناعة .
ولكن الحمد لله أن أحفادى طيبون ويتمتعون بصحة
جيدة ، ويمكننا أن نواصل حياتنا على أى حال ..
ولكن لماذا يدور الحديث حولى ؟

- وكيف تعيشين ؟ ما هو مورد رزقك ؟

- حسنا .. أنا أكسب القليل .. لا تتصور كم كنت
أكره الموسيقى ، ولكن ما أنفعتها لى الآن .. كانت
يدها الصغيرة على اندولاب المجاور لها ، وأخذت تنقر
بأصابعها أحد الأنغام .

- كم تأخذين أجرا للدرس الواحد ؟

- أحيانا روبلا واحدا ، وأحيانا خمسين كويك .. أو

ثلاثين .. كلهم شخصيات رقيقة .

وعاد كازاتسكى يسأل وعلى شفتيه ابتسامة : وهل
يتقدم تلاميذك فى دروسهم ؟

ولم تعتقد بازسكوفيا ميخائيلوفنا لأول وهلة أنه يسأل
جادا ، ونظرت إليه فى تساؤل :

- بعضهم متقدم فعلا . . أحدهم فتاة رائعة - ابنة
الجزار - فتاة رقيقة جدا ! لو كنت على شىء من الذكاء ، كان
ينبغى على طبعها ، بما تهيئه لى العلاقة مع أبيها أن أجد وظيفة
لصهرى . ولكن - كما ترى - لم أستطع أن أعمل شيئا .

ثم غض كازاتسكى من بصره وهو يقول : نعم . . نعم
ولكن ما دورك فى الحياة الكنسية ؟

- لا تقل شيئا فى هذا الموضوع . فى هذه الناحية أنا
خاطئة للغاية ، فقد أهملت هذه الحياة ! صحيح
انى حريصة على الصوم مع الأطفال ، وأحيانا نذهب الى
الكنيسة وقد تنقضى أشهر طويلة دون أن أدخل الكنيسة . .
كل ما أعمله أنى أحث الأطفال على الذهاب الى هناك .
- لماذا لا توظفين على الكنيسة ؟

- أقول لك الحق - ثم أحمر وجهها خجلا - أشعر
بالخجل من نفسى من أجل ابنتى ومن أجل الأطفال . . كيف
أذهب فى ملابسى المهلهلة ؟! لا أملك شيئا آخر . بالاضافة
الى ذلك فأنا مهملة كسولة .

- وهل تصلى فى البيت ؟

- نعم ، أفعل . ولكن أى نوع من الصلاة ؟ صلاة آلية
أعرف أنه لا يجب أن تكون كذلك ، ولكن يعوزنى الشعور

الدينى ، الشىء الوحيد الذى أعرفه ان شرى واثمى كثير
جدا . . .

وأوماً كازاتسكى برأسه قائلاً : . . هذا صحيح !
هذا صحيح !

ولكنها صاحت تجيب على نداء صهرها : هاأنذا آتية . .
ثم غادرت الحجرة وهى ترتب ضفائر شعرها . فى هذه المرة
تأخرت قليلاً ، وعندما رجعت كان كازاتسكى جالساً فى
نفس الوضع الذى كان عليه ، وقد أسند مرفقيه على ركبتيه
وطأطأ رأسه . ولكنه كان قد ثبت جرابه على ظهره . عادت
تحمل مصباحاً صغيراً من الصفيح ، دون غطاء يظلمه ، فلما
دخلت رفع إليها عينيها المرهقتين الجميلتين ، ثم تنهد بعمق .
وبدأت تستأنف حديثها فى شىء من الحياء : نم أقل لهم من
أنت . . كل ما قلته أنك أحد السياح . . رجل نبيل كنت
أعرفه من قبل . . تعال نشرب الشاى معا فى حجرة الطعام .
- لا . .

- إذا ، لابد أن أحضر لك نصيبك من الشاى .

- لا . . لا أريد شيئاً . الرب يباركك يا باشنكا !
سأمضى فى طريقى الآن . إذا أردت أن تصنعى معنى رحمة ،
فلا تقولى لأحد أنك قابلتني . من أجل محبة الله لا تخبرى
أحدًا . أشكرك . . مستعد أن أسجد عند قدميك ، ولكنى
أعلم أن هذا سيضايقك . . أشكرك ثانية وأرجو أن تغفرى لى
من أجل المسيح .

- باركنى . . يا أبى . .

– الله يباركك .. اغفرى لى من أجل المسيح !
ثم نهض واستعد للخروج ، ولكنها أبت أن تدعه يذهب
حتى يأخذ من يدها ما أحضرتة من خبز وزبد وبعض الكعك .
كان الظلام قد أرخى سدوله ، ولم يكد يجتاز البيت
الثانى حتى اختفى فى طيات الليل . لقد أدركت وجوده
لأن الكلب فى بيت القسيس كان ينبح عند رؤيته .

« اذا فهذا هو معنى الحلم .. باشنكا هى النموذج الذى
كان ينبغى أن أكونه ولكنى فشلت . لقد عشت من أجل
الناس بينما كنت أقول أنى أقدم حياتى ذبيحة لله بينما هى
عاشت لله وهى تظن أنها تعمل من أجل الناس .. نعم ،
عمل صالح واحد – كأس ماء بارد دون انتظار الجزاء –
أفضل من أى فائدة كنت أظن أنى أمنحها للناس . ومع
ذلك ، ألم يكن هناك شىء من رغبة أمينة صادقة لخدمة الله؟
وبعد أن سأل نفسه هذا السؤال ، جاءه الجواب « نعم كان
هناك .. ولكن الرغبة الصادقة أفسدتها وطغت عليها رغبة
فى مديح الناس أو السبوح الباطل . حقا ، الله غير موجود
بالنسبة للرجل الذى يعيش كما عشت ساعيا لمديح الناس .
لا حاجة للبحث عن الله ! »

ومضى فى طريقه من قرية الى أخرى ، كما فعل فى رحلته
الى باشنكا ، يقابل ثم يفارق غيره من السياح ، رجالا
ونساء ، يطلب الخبز ويلتمس قضاء الليل باسم المسيح .
من حين الى آخر كان يستمع الى التوبيخ من زوجة غاضبة ،
أو تنهال عليه الشتائم من فلاح سكران . ولكن فى معظم

الأحوال كان يحصل على حاجته من انطعام والشراب وفي بعض الأحيان زادا للطريق . كان مظهره النبيل يجتذب الكثيرين اليه ، بينما البعض الآخر يستهويه منظر الرجل النبيل انذى انحدر الى هذا الفقر والبؤس . ولكن أسلوبه الرقيق كان يستهوى قلوب الجميع . وكلما وجد نسخة من الانجيل فى أكواخ الفقراء ، كان يقرأه بصوت مرتفع . كانت نبراته تلمس قلوب السامعين فيتعجبون كأنهم يسمعون شيئاً جديداً ، وان كان مألوقاً .

عندما كان ينجح فى خدمة من الخدمات سواء بالارشاد أو بمعرفته للقراءة والكتابة أو اذا فض خلافاً أو مشاجرة ما كان ينتظر حتى يستمع الى شكرهم بل كان يمضى مباشرة بعد ذلك . . . وبالتدريج بدأ الله يظهر نفسه فيه .

فى احدى المرات كان يمشى بجوار اثنتين من العجائز وأحد الجنود ، فاستوقفهم موكب يتكون من رجل وامرأة فى عربة ، ورجل آخر وامرأة أخرى على صهوتى جواديهما . كان الزوج ممتطياً حصانه مع ابنته بينما كانت زوجته فى العربة مع مسافر فرنسى .

وقد توقف الراكب حتى تسنح الفرصة للرحالة الفرنسى حتى يشاهد السياح ، الذين - كما تصورهم الأساطير الروسية - يتنقلون من مكان الى آخر بدلا من العمل .

كان الحديث يدور بينهم بالفرنسية حتى لا يفهمهم الآخرون . وقال الرحالة الفرنسى :

.. - أسألوهم عما اذا كانوا على ثقة. ويقين من أن سياحتهم مقبولة لدى الله .

ولما سئل السؤال أجابت إحدى العجوزتين : كما يرى الله وحسب ارادته .. ان أقدامنا بلغت الأماكن المقدسة ، ولكن قلوبنا ربما لم تصل بعد ...

ولما سئل الجندي أجاب بأنه وحيد في هذا العالم ، وليس له مكان آخر يذهب اليه .

ثم سألوا كازاتسكى من يكون .

- خادم الله .

- ماذا يقول ؟ انه لم يعط جوابا .

- انه يقول أنه خادم الله .. ربما كان هذا من سلالة أحد الكهنة . يبدو أنه ليس انسانا عاديا .. عندك فكرة ؟

ونقب الفرنسى فى جيوبه ، فوجد بعض الفكة الصغيرة ونقد كلا من السياح عشرين كوبك .

- ولكن أرجو أن تخبرهم انى لا أعطيهم هذا المال لكى ينفقوه على شموع الكنيسة .. بل لهم أن يصيبوا شيئا من الشاى .. شاى ، شاى تك أيها الرفيق العجوز .

قال هذا وهو يبتسم ، ويربت على كتف كازاتسكى بيده وهى فى القفاز .

وأجاب كازاتسكى : المسيح يباركك .. وانحنى برأسه الأصلى دون أن يلبس قلنسوته .. لقد سر من هذا اللقاء

لا لشيء الا لأنه أغضى عن رأى الناس، وأنه لم يقم الا بأبسط
الأعمال وأيسرها . . . وأنه قبل فى خشوع عشرين كوبك
أعطاهما بدوره الى رفيقه الشحاذ الأعمى . . . كلما أهمل
رأى الناس فيه ، كلما ازداد احساسا بوجود الله داخله .

وسار كازاتسكى على هذا المنوال ثمانية أشهر ، يجوب
البلاد ويتنقل من مكان الى آخر . وفى الشهر التاسع القى
القبض عليه لأنه لم يكن معه جواز سفر . حدث له هذا
عندما لجأ الى مأوى فى احدى الأقاليم ليلا حيث قضى الليل
مع بعض السياح . أخذوه الى مخفر البوليس حيث استفسروا
عن اسمه وعن جواز سفره فأجاب بأنه ليس لديه جواز
سفر ، وأنه عبد من عبيد الله . وقيدوا اسمه فى قائمة
المتشردين ، وصدر ضده الحكم ، وأرسل لكى يقضى بقية
حياته فى سيبيريا .

وفى سيبيريا أقام لدى أحد الفلاحين ، على درجة من
الثراء ، وقد عهد اليه بالعمل فى بستان الخضروات ، وتعليم
الأطفال ، والعناية بالمرضى .



رقم الايداع بدار الكتب ٧٣/٢٥٩٨

مطبعة دار العالم العربي
٢٣ شارع الظاهر - ت ٦٧٠٦ - القاهرة



الناسك

+ مرآة صافية .. فقل

صورة لسانه الجاهل

إنما تحت الأدم

يبيط به الصنف

ولا يعلم !

+ نور يهدي السارثية

من دروب الرب

عنى لا تغفل عبوده الجاهل

عنه أخطار الظلمة

موسى ولقبه مينا